الصلة بين الأصول الفكرية للتنوير، والليبرالية، والعلمانية، والحداثة، ومابعد الحداثة.

إعداد:

د.آمال بنت عبد العزيز العمرو.

الأستاذ المشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة.

كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض

العام الجامعي

١٤٣٤-١٤٣٥هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.أما بعد:

يتزاحم في الساحة الإسلامية الكثير من المذاهب الفكرية الوافدة من الغرب، بقي بعضها بأصوله الغربية، بينما حاول البعض أسلمة شيء من هذه المذاهب. وفي فهم العلاقة التي تربط الأصول الفكرية لهذه المذاهب ببعض، تكتمل الصورة لدى المراقب والباحث، ويتضح له النسيج الفكري الغربي بصورة تكاملية تعري تناقضاته ونتاجه على المجتمع العالمي.

وقد كان التنوير تيارا ومنهجا يضم بداخله العديد من المذاهب الفكرية، حيث كان التنوير مؤثرا في ظهور بعض المذاهب الفكرية، كما أنه انتُقِد من قبل تيارات أخرى.

وفي هذا البحث سوف تتضح العلاقة بين التنوير والعلمانية والليبرالية والحداثة ومابعد الحداثة، كما سيتضح حقيقة تراث التنوير الذي لازال يطالب به الكثيرون في البلاد الإسلامية. وأن"ثمرة قرون طويلة من الاستنارة كانت إلى حد ما مظلمة، ولذا راجع الإنسان الغربي كثيرا من أطروحاته بخصوص الاستنارة... ومع هذا يقوم الفكر العلماني العربي بنقل أطروحات الاستنارة من الغرب بكفاءة غير عادية"(١). وهذا مفكر الحداثة هابرماسHabermas (٢)يقول بصراحة: "إن الثقافة الفكرية المزهوة بنفسها لعصر الأنوار انفصلت عن الدين بعملية انشقاق، واضعة إياه(أي الدين) إلى جانبها ومصطفة إلى جانبه، إن تردي الدين يؤدي إلى انفصال الإيمان عن المعرفة انفصالا تعجز الأنوار عن تجاوزه بوسائلها الخاصة"(٣).

لقد كانت هذه المذاهب طريق أوروبا في بحثها عن الحقيقة والنعيم على الأرض، ويظهر الجانب الحاسم في تاريخ الفكر الغربي في التفاعل -بل الحرب-بين الفلسفة والدين والعلم، ومانجم عن ذلك من مذاهب وتيارات فكرية شكلت الثقافة الغربية، التي بدورها أثرت على

---

(١)انظر: عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة(٢٨٦/١).

(٢)يورغن هابرماس فيلسوف وعالم اجتماع ألماني معاصر ولد عام (١٩٢٩م).

(٣)هابرماس، القول الفلسفي للحداثة ص(٣٦).

العالم. وكتب بول هازار Paul Hazard (١٨٧٨-١٩٤٤) عن أزمة الوعي الأوروبي، كما كتب غيره عن آلام العقل الغربي، بل عن انتحار الغرب، في سبيل عرض الثقافة الفكرية والفلسفة الأوروبية، ومامر بها من صراعات ومحن، مايوضح الأزمة الفكرية والدينية التي مر بها الغرب، وكيف حاولوا الخروج من هذه الأزمة بجعل الدين قنطرة عبروا من فوقها ثم هدموها، وأقسموا ألا ينظروا للخلف، وشخصوا بأبصارهم لمستقبلهم قائما على الإنسان الإله بعقله الجبار، وإرادته المطلقه، وحريته التي لاقيود لها، ظانين أنهم عثروا على الفردوس المفقود، معتقدين أن جنة البشر على الأرض. ومضى على ذلك قرون، ارتد المجتمع الغربي بعدها خاسئا وهو حسير، يقلب كفيه على ماأنفق فيها، وهي خاوية على عروشها، فاقدة للقيم، خاسرة لمعيار الحقيقة، قد عدمت ذاتها ووجودها.

هدف البحث:

كشف الصلة الفكرية بين التنوير والليبرالية والعلمانية والحداثة ومابعد الحداثة، ويتضمن ذلك توضيح الأصول الفكرية لهذه المذاهب، ثم نقدها بإيجاز.

تقسيم البحث:

قسمت البحث إلى خمس مسائل، وخاتمة، كالآتي:

المسألة الأولى: التنوير.

المسألة الثانية:الليبرالية وعلاقتها بالتنوير.

المسألة الثالثة:العلمانية وعلاقتها بالتنوير والليبرالية.

المسألة الرابعة:الحداثة وعلاقتها بالتنوير والعلمانية.

المسألة الخامسة:مابعد الحداثة وعلاقتها بالحداثة والتنوير.

الخاتمة، وفيها أهم النتائج.

وقد راعيت الاختصار في العرض والنقد، مقتصرة على أصول الردود، وحيث قد مثلت هذه المذاهب واقع الفكر الغربي، حرصت أن تكون بعض القراءة النقدية بأقلام غربية،كي لايقال عنها أنها رؤية لم تفهم الحضارة الغربية وفكرها، أو أنها نظرة مشخصنة من واقع محدود.

هذا والله أسأل أن يجعله عملا خالصا متقبلا، وأن ينفع به. والحمد لله رب العالمين.

المسألة الأولى: التنوير.

١-تعريف التنوير:

التنوير حركة فكرية لادينية ظهرت في أوروبا في القرن الثامن عشر، آمنت بالعقل مصدرا للتشريع والأخلاق والمعرفة، وسبيلا لتحقيق الحرية والتقدم، ونزعت كل سلطة فوق العقل والعلم، جذورها ممتدة في عصر النهضة[١]. يقول إيمانويل كانط Immanuel Kant(١٧٢٤-١٨٠٤) -وهو من أشهر مفكري عصر التنوير- :" إن بلوغ الأنوار هو خروج الإنسان من القصور الذي هو مسؤول عنه. والذي يعني عجزه عن استعمال عقله دون إرشاد الغير، وإن المرء نفسه مسؤول عن حالة القصور هذه عندما يكون السبب في ذلك ليس نقصا في العقل، بل نقصا في الحزم والشجاعة في استعماله دون إرشاد الغير"[٢].

٢-تاريخ ظهوره:

يؤكد بعض المؤرخين أنه ابتداءا من سنة ١٦٧١م حلت كلمة التنوير محل الفكر والذكاء، وانتشرت بين الناس للدلالة على الفخر بتقدم الإنسان[٣]، ويرى المؤرخ الفرنسي بول هازار أن أفكار التنوير قد أُفصح عنها نحو عام ١٦٨٠م[٤]، وبعد انتشار المصطلح ظهرت محاولات لتحديد معناه، ومن تلك المحاولات السؤال الذي طرحته صحيفة بريلينتش موناتشرفت Berliniche Monatsschrift في برلين عام (١٧٨٤م) على قرائها، وطلبت منهم أن يرسلوا إجاباتهم عن: ماهو التنوير؟[٥] فجاءت إجابات عدد من الفلاسفة والمفكرين، وأشهر تلك الإجابات كانت مقالة كانط: ماهي الأنوار. وفي العام ١٧٨٩م بات القول"إننا نعيش ونحيا في عصر التنوير"[٦] مألوفا.

---

(١) انظر: آمال العمرو، التنوير مفهومه وأصوله، مجلة الدراسات العقدية، وانظر نحو هذا:موسوعة لالاند الفلسفية ص(٧٥٩).

(٢)إيمانويل كانط، جواب على السؤال:ماهي الأنوار، ص(٨٥).وهو ضمن كتاب ثلاثة نصوص؛ تأملات في التربية، ماهي الأنوار، ماالتوجه في التفكير، لكانط.

(٣)انظر: الزواوي بغورة، مابعد الحداثة والتنوير ص(٧٢).

(٤)انظر: بول هازار، أزمة الضمير الأوروبي ص(١٠).

(٥)انظر:كانط،جواب على السؤال:ماهي الأنوار، ص(٨٥)، ميشيل فوكو، ماهي الأنوار، ص(١).

(٦)بول هازار ،الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر، ص(٤٣)،نقلا عن الزواوي بغورة، مابعد الحداثة والتنوير، ص(٧٢).

٣-أصول التنوير:

إن كان ثمة علامة بارزة للتنوير فهي العقلانية، فقد كان عصر التنوير عصر العقل. وكانت الاستنارة رؤية مادية عقلانية تدور حول رؤية محددة للعقل وعلاقته بالطبيعة، وتتفرع عنها رؤية للتاريخ والأخلاق والجمال[١]. لكن عقلانية التنوير لم تكن مقتصرة على علوم عقلية، بل هي وفق برينتون Brinton (١٨٩٨-١٩٦٨)مصطلح عام وشامل، ويندرج تحته: المادية والوضعية واللادينية والتأليه الطبيعي أو الربوبية[٢]. حيث تنزع العقلانية إلى إسقاط كل ماهو خارق للطبيعة أو غيبي من الكون، وقد أبقت فقط على الطبيعي الذي يؤمن المفكر العقلاني أنه قابل للفهم في النهاية عبر مناهج البحث العلمي[٣].

وقد آمن المستنيرون بالنعيم العقلاني الطبيعي على الأرض، وكفروا بنعيم الآخرة. وآمنوا بفردوس على الأرض، وبالتقدم الذي يأتي عن طريق انتشار العقل، وبقدرة الإنسان على بلوغ الكمال. وقد كان نهاية القرن الثامن عشر شاهدا على مظاهر التقدم المادي، وانتشار الخدمات وسبل الراحة[٤]. وثمة تطور خطير في موقف الفكر التنويري من العقل؛ حيث "لم يوضع ضدا للدين فقط، أو يعرف بتعارضه مع الدين؛ بل منح بصورة ضمنية المكانة العقائدية المطلقة للدين نفسها، وبهذا المعنى فإن العقل كان مرادفا للعقيدة الإلهية"[٥].

وقد تمثل أشهر نتاج لمجموعة من فلاسفة التنوير بموسوعة العلوم والفنون التي أشرف عليها ديدروDiderot (١٧١٣-١٧٨٤)، وشارك فيها دالمبير D'Alembert (١٧١٧-١٧٨٣)، وفولتير Voltaire (١٦٩٤-١٧٧٨)، وروسو Rousseau(١٧١٢-١٧٧٨)، وهولباخ Holbach(١٧٢٣-١٧٨٩) وغيرهم، ولم تكن تلك الموسوعة مجرد مصدر من مصادر العلم بل كانت "معرضا شاملا للحركة التي قام بها أعداء الدين، وكان صاحبها يقصد بها تحويل الناس عن المسيحية وما فيها من خطيئة آدم وحواء، إلى فهم جديد للحياة، يرون فيه الدنيا

---

(١)انظر: عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة(١/٢٩٠).

(٢)انظر:كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث،ص(١٢٢).

(٣)انظر: تشكيل العقل الحديث،ص(١٢٠).

(٤)انظر لتوضيح ذلك:تشكيل العقل الحديث ص(١٧٠-١٧١)(١٩٨)(٢٠٠).

(٥)غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة، ص(١٦٠).

مكانا جديرا بالإصلاح وترقب السعادة، مكانا فيه شرور ولكنها لاتعود إلى نقص أصيل في الطبيعة الإنسانية، وإنما تعود إلى فساد النظم الاجتماعية أو اعوجاج أساليب التربية والتعليم. لقد بذل ديدرو وروسو كل بأسلوبه الخاص جهودا متواصلة لكي يصرفوا اهتمام الناس عن مذاهب الدين ويوجهوه إلى إصلاح المجتمع"[١].

وقد نفى كتاب الموسوعة أي صورة للإيمان الديني المعتمد على المعجزات، والتي يرون أنها عقائد تخالف قوانين العقل. وفي مادة "اللاتدين" تتحدث عن حرية عدم اعتناق أي دين على الإطلاق، وأن هذا ليس له نتائج خطيرة على المجتمع لأن الأخلاق مستقلة عن الدين[٢]. وليس في عقيدة التنوير مكان لذات إلهية يقصدها البشر بصلواتهم، وهي لاتسلم بوجود خوارق للطبيعة[٣]. وفيما جاهر هولباخ، وجوليان دي لامتري، وكلود هلفتيوس بأنهم ملاحدة ماديون، آمن آخرون بنوع ما من المسيحية. وآمن البعض الآخر بالدين الطبيعي أمثال فولتير وروسو[٤]، حيث كانت الفكرة الرئيسية فيه الإله الربوبي الذي دفع الكون إلى الحركة وفق قانون طبيعي ثم تركه يجري حسب نظامه الخاص[٥]، لكن هؤلاء الفلاسفة ليسوا حقيقة مؤلهين بل ولا حتى ربوبيين مهما أسرفوا في استعمال كلمة الرب، إنهم يفترضون مبدءا هو القوة المحركة للكون في شموله[٦]، وحقيقة مقولتهم إلحادية، تفضي إلى إنكار وجود الله. وانحاز أدب القرن الثامن عشر انحيازا طاغيا إلى جانب الفكر التنويري، لكن رغم ذلك استمرت الكنائس الرسمية في التعليم وأداء طقوسها، ولم تنقطع طوال هذه السنين جماهير العامة، وعدد كبير من الطبقتين المتوسطة والأرستقراطية عن مراعاة أساليب المسيحية التقليدية[٧].

---

(١) ج.بيوري، حرية الفكر ص(١٢٠).

(٢)انظر:غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة، ص(١٦١).

(٣)انظر:تشكيل العقل الحديث ص(٢٠٠).

(٤)انظر: آمال العمرو، بحث التنوير، مفهومه وأصوله ،آلام العقل الغربي، ص(٣٦٩)، الطرق إلى الحداثة، ص(١٦٢).

(٥)انظر:تشكيل العقل الحديث ص (١٩٩)، بحث التنوير، آمال العمرو، مجلة الدراسات العقدية.

(٦)انظر:تشكيل العقل الحديث ص(٢١٩).

(٧)تشكيل العقل الحديث، ص (١٩٤-١٩٥).

أما الحرية التي طالب بها فلاسفة التنوير فقد كانت تشمل الحرية السياسية، والحرية المدنية، والحرية الفكرية[١]، حيث رأوا أنه"ينبغي توافر الحرية الكاملة للاعتقاد والمناقشة، لأي مبدأ يعتقد أصحابه أنه عقيدة خلقية مهما اعتبرناه منافيا للأخلاق"[٢]. وفي ضوء القدر الكبير من الحرية الفكرية ظهر في القرن التاسع عشر صور متباينة من المادية والوضعية والبراجماتية وغيرها، وتشعب التنوير وانقسمت آماله وبرامجه السياسية[٣]. فجاءت رومانسية مطلع القرن التاسع عشر عقب النزعة الكلاسيكية للقرن الثامن عشر، وجاءت النزعة المثالية واتجاه التأكيد على البنية الكلية العضوية في أواخر القرن التاسع عشر عقب النزاعات المادية لعصر التنوير، وذاع إحياء التقاليد المسيحية في القرن التاسع عشر، عقب النزعة الربوبية، والنزعة الإلحادية، ونزعة الشك التي كانت تظهر بين الحين والحين، ونزعة معاداة رجال الدين في القرن الثامن عشر[٤].

وباختصار فإن التنوير قد شكل بنقده للدين وتهميشه، وتأليهه للعقل ومطالبته بالحرية، وتقديسه للفردانية، وخلعه كل القيود والسلطات التي تكبل الفرد، قاعدة وبيئة ظهر منه العديد من المذاهب الفكرية كالعلمانية والليبرالية والحداثة. كما ظهرت حركات مضادة لعقلانية التنوير، حيث أدى الاعتماد المطلق للعقل والحس، مع توافر جو الحرية المفرطة إلى فلسفات لاعقلية وفوضوية معاكسة.

---

(١)غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة، ص(١٦٧).

(٢)ج .بيورى ،حرية الفكر ص(١٧٠)، وانظر: جون ستيوارت مل،عن الحرية، ص(١٥)(٢٣).

(٣)انظر:تشكيل العقل الحديث ص(٢٢٠) (٢٣٥).

(٤)انظر:تشكيل العقل الحديث ص(٢١٧).

المسألة الثانية:الليبرالية وعلاقتها بالتنوير.

١-تعريف الليبرالية:

الليبرالية Liberalism مصطلح وُضِع للدلالة على مذهب اقتصادي حر، وقد طرأ على دلالته تغيير وتعديل وفق ظروف إخفاقه ونتائجه على المجتمع.

يقول جون غراي John Gray [١]:" من الممكن تقسيم الليبرالية بسهولة وبشكل لاخلاف عليه إلى نوعين أحدهما كلاسيكي، والآخر تعديلي، حيث يكون الليبراليون الكلاسيكيون مخلصين في المقام الأول للحرية السلبية، ويكون التعديليون ضربا من الليبراليين الرفاهيين أو المساواتيين"[٢]. ولذا فالليبرالية قسمان:

(١)الليبرالية الكلاسيكية:

تتركز على إطلاق الحرية الكاملة للفرد، ونزع الوصاية السياسية والدينية والأخلاقية. وهي تتنوع إلى ليبرالية سياسية واقتصادية مؤثرة على الدين والأخلاق.

أما تعريف **الليبرالية السياسية** فهي:"مذهب سياسي يرى أن من المستحسن أن تزداد إلى أبعد حد ممكن استقلالية السلطة التشريعية والسلطة القضائية، بالنسبة إلى السلطة الإجرائية التنفيذية، وأن يعطى للمواطنين أكبر قدر من الضمانات في مواجهة تعسف الحكم"[٣].

كما عرفت بأنها"مذهب سياسي فلسفي يرى أن الإجماع الديني ليس شرطا لازما ضروريا لتنظيم اجتماعي جيد، ويطالب بحرية الفكر لكل المواطنين"[٤].

وأما **الليبرالية الاقتصادية** فهي:" مذهب اقتصادي يرى أن الدولة لاينبغي أن تتولى وظائف صناعية ولا وظائف تجارية، وأنها لايحق لها التدخل في العلاقات الاقتصادية التي تقوم بين الأفراد والطبقات أو الأمم"[٥]. ويتضمن هذا حرية الملكية الخاصة، وحرية التعاملات التجارية.

---

(١) فيلسوف سياسي واقتصادي بريطاني معاصر، ولد عام ١٩٤٨.

(٢)جون غراي، مابعد الليبرالية ص(٤٣٥)، عن موقف الليبرالية في البلاد العربية من محكمات الدين، الدميجي ص(٨٧).

(٣)لالاند،الموسوعة الفلسفية ص(٧٢٥).

(٤)لالاند،الموسوعة الفلسفية ص(٧٢٦)، وانظر:جميل صليبا، المعجم الفلسفي(١/٤٦٥).

(٥)لالاند،الموسوعة الفلسفية ص(٧٢٦).

ورفع يد الدولة عن التدخل في المعاملات الاقتصادية. وهي بهذا المعنى تتعارض تماما مع الاشتراكية.

(٢) الليبرالية المعاصرة أو الجديدة:

١- التطور الذي حصل لليبرالية الاقتصادية عبر النظرية الكينزية:

جاءت الأزمة العالمية عام ١٩٢٩ لتشكل ضربة هائلة اهتز لها الاقتصاد الرأسمالي إلى درجة الانهيار، وظهرت النظرية الكينزية بوصفها محاولة لتعديل النمط الاقتصادي الرأسمالي حيث يقترح الاقتصادي البريطاني جون كينزJohn Keynes (١٨٨٣-١٩٤٦) في كتابه "النظرية العامة" (سنة ١٩٣٦)[١] حلاً مرتكزاً على ضرورة تدخل الدولة، وقد أسَّسَ حله هذا على تحليل شامل للاقتصاد السياسي الليبرالي وتطبيقاته، منتقداً النظرية الليبرالية الكلاسيكية في نظرتها لسوق الشغل حيث لم تنتبه لمشكلة البطالة ولم تبلور معالجات لها. وفي هذا السياق ستتجه المدرسة الكينزية إلى إنجاز تعديل كبير في النظرية الليبرالية حيث نادت بوجوب تدخل الدولة بدل ترك الفعل الاقتصادي مرتهناً بفردانية "دعه يعمل دعه يمر" ، وهي بذلك رؤية تقلل من استقلالية وحرية الفعل الاقتصادي، وهذا ما أسماه بعضهم بإنقاذ الليبرالية من فوضى الحرية[٢].

٢- الليبرالية الجديدة:

كان التوجه لليبرالية الجديدة منذ السبعينيات من القرن المنصرم، حيث هيمنت الليبرالية الجديدة على صيغة الخطاب الاقتصادي المعاصر[٣].

وسبب ذلك أنه في بداية السبعينات (١٩٧٣م) شهد الاقتصاد العالمي أزمة جديدة عقب ارتفاع سعر النفط، وهي أزمة جديدة لم تكن معروفة، وتتمثل جدة هذه الأزمة في اقتران التضخم بالبطالة وهو اقتران نادر الحدوث في تاريخ الاقتصاد الرأسمالي. لذا برزت رؤى اقتصادية عملت على بلورة إطار نظري مغاير للإطار الكينزي، واقترحت تقليل نفقات الدولة

---

(١)انظر: جون كينز، النظرية العامة للتشغيل والفائدة والنقود.

(٢)انظر:الطيب بوعزة، نقد الليبرالية ص(١١١)، جون كينز، النظرية العامة للتشغيل والفائدة والنقود، جيمس فولتشر،الرأسمالية ص(١٥٥-١٦١).

(٣)ديفيد هارفي،الليبراليون الجدد ص(١٣-١٥).

والتراجع عن النظرية الكينزية بالعودة إلى المنطق الليبرالي القاضي بوجوب إطلاق الفعل الاقتصادي من كل قيد خارجي واختزال سلطات الدولة من مهامها ونفوذها، وجعل السوق كينونة مستقلة بذاتها. هذا الحل سيجري الاصطلاح على تسميته بالليبرالية الجديدة [١].

تعريف الليبرالية الجديدة:

هي"نظرية في الممارسات السياسية والاقتصادية تقول بأن الطريقة الأمثل لتحسين الوضع الإنساني تكمن في إطلاق الحريات والمهارات التجارية الإبداعية للفرد، ضمن إطار مؤسساتي عام يتصف بحمايته الشديدة لحقوق الملكية الخاصة، وحرية التجارة، وحرية الأسواق الاقتصادية. ويقتصر دور الدولة في هذه النظرية على إيجاد وصون ذلك الإطار المؤسساتي الملائم لتلك الممارسات"[٢].

إن التوجهات النيوليبرالية لاجديد فيها سوى مزيد من إطلاق النزوعات التي أفصح عنها الفكر الليبرالي الكلاسيكي، مع تعميق البعد المنفعي، وتأسيس الفضاء المجتمعي على مبدأ اللذة بمدلولها الحسي[٣]. كما أن الليبرالية الجديدة ركزت على الإطار المؤسساتي، وأوكلت مهمة إيجاد مناخ الحرية وحمايته للدولة، بينما رفعت الليبرالية الكلاسيكية يد الدولة عن أي تدخل في تنظيم حرية الأفراد.

ويتضح مما سبق ارتكاز الليبرالية على الفردية والحرية.

٢-تاريخ ظهور المصطلح:

تبين فيما سبق تاريخ الليبرالية الاقتصادية، أما الليبرالية السياسية والفكرية فقد بدأ يظهر في أعقاب عصر الإصلاح الديني موقف جديد إزاء السياسة والفلسفة في شمال أوروبا كرد فعل للحروب الدينية والخضوع لروما، يطلق على هذا الموقف الجديد تجاه مشكلات الميدان الاجتماعي والثقافي اسم الليبرالية، من سماتها: أنها بروتستانتية، فعلى كل فرد أن يسوي أموره

(١)انظر:الطيب بوعزة، نقد الليبرالية ص(١١٢).

(٢)ديفيد هارفي،الليبراليون الجدد ص(١٣).

(٣)انظر:الطيب بوعزة، نقد الليبرالية ص(١٣١).

مع الله بطريقته الخاصة، ومعارضة للتمييز، محورها التسامح-وفق اصطلاحهم-، وقد كانت ليبرالية القرن السابع عشر قوة للتحرر من كافة ضروب الطغيان[١].

وكان الفيزيوقراطيين وهم أتباع مذهب اقتصادي سياسي نشأ في فرنسا في القرن الثامن عشر ينادون بحرية التجارة والصناعة[٢]، وهم من صاغ الشعار الليبرالي: "دعه يعمل دعه يمر"، إلا أنها كانت لفظا عاما يدل على التحرر، مع وجود بدايات عملية، ولم تتحول إلى توجه فكري مُنَظّر إلا في بداية القرن التاسع عشر عام ١٨١٠[٣]، يقول جون غراي:"إذا كان لليبرالية تاريخ فهو يبدأ في وقت ما في أوائل القرن التاسع عشر حين اكتسبت كلمة ليبرالي مدلولها المعاصر"[٤].

٣-أسس الليبرالية:

تتمحور الليبرالية حول الحرية والفردية، والنفعية، والعقلانية، مع التسامح. وإن طغى عليها جانب الحرية الملتف حول الفرد.

ويرى راسل أن محور الموقف الليبرالي هو التسامح، ونبذ التمييز، واتجاه نحو الديمقراطية المبنية على حقوق التملك، والحد من سلطة الملوك، والارتياب في الحكومة لأنها تقف عقبة في وجه النمو الحر للتجارة، مع الإقرار بالحاجة للنظام والقانون الذي توفره الحكومة، وأن من السمات الرئيسية للاتجاه الليبرالي احترامه للفردية[٥]، وتغلغلت هذه النزعة الفردية في الميدانين الاقتصادي والفلسفي، ففي الاقتصاد تمثلت بمبدأ دعه يعمل، الذي قام مذهب المنفعة في القرن التاسع عشر من أجل تبريره عقليا، وفي الفلسفة أدى إلى تأكيد الاهتمام بنظرية المعرفة. وكانت النزعة الفردية في أساسها نظرية عقلانية، وظلت الليبرالية-كما يقول راسل-على وجه العموم حركة بلا عقيدة جامدة[٦]، إذ عقيدتها حرية العقيدة.

---

(١)انظر:حكمة الغرب ص(٢/٧٩-٨٠)بتصرف.

(٢)كرين برينتون، تشكيل العقل الحديث،ص(١٦٤).

(٣)انظر: موسوعة لالاند الفلسفية ص(٧٢٦)، والطيب بوعزة، في نقد الليبرالية ص(٢٢) يشير إلى أواخر الثامن عشر وبداية التاسع عشر.

(٤)جون غراي، مابعد الليبرالية ص(٤٣٥)، عن موقف الليبرالية ص(٨٤).

(٥) انظر:حكمة الغرب ص(٢/٨٠-٨١)بتصرف.

(٦)انظر:حكمة الغرب ص(٢/٨٠-٨٢)بتصرف.

وقد تأسست الليبرالية على مبدأ المنفعة الذي يدعم الحرية الفردية، ويبررها، وهو أن هدف الفرد في حريته تحقيق أكبر قدر من المنفعة الذاتية، التي تفسر بتحقيق أكبر قدر من اللذة. واعتمد جون ستيوارت ملJohn Stuart Mill (١٨٠٦-١٨٧٣) في ليبراليته السياسية على مبدأ المنفعة عند جيرمي بنثام Jeremy Bentham(١٧٤٨-١٨٣٢)،حيث يقول:" والمذهب الذي يقبل المنفعة أساسا للأخلاق هو مبدأ السعادة العظمى، إذ يقول إن الأفعال تكون عادلة بمقدار ماتزيد من السعادة..والمقصود بالسعادة اللذة وغياب الألم"[١]. وفي كتابه "عن الحرية" حدد جون ستيورات مل بوضوح المبدأ الأساسي الذي ترتكز عليه ليبرالية القرن التاسع عشر، وهي حرية الفرد، وحدود تدخل المجتمع وسلطته عليه، حيث يقول:"أن الغاية الوحيدة التي يكون ممارسة القوة فيها بشكل شرعي على أي عضو في المجتمع المتحضر، ضد إرادته، هي منع إلحاق الأذى بالآخرين. إن مصلحته-أي عضو المجتمع-المادية أو المعنوية ليست ضمانا كافيا، إذ لايمكن إجباره بشكل شرعي على أن يفعل أو يتحمل أو يتسامح لأنه من الأفضل بالنسبة له أن يفعل ذلك؛ لأن ذلك سيجعله أكثر سعادة، أو لأن فعل ذلك..سيكون شيئا حكيما، أو حتى صحيحا. تلك هي أسباب جيدة للتجادل معه، أو النقاش معه، أو إقناعه أو التوسل إليه، ولكن ليس لإجباره أو إيقاعه بأي شر كان في قيامه بخلاف ذلك. ولأجل تبرير ذلك فإن السلوك الذي نرغب في منعه منه يجب أن يعتبر منتجا للشر أو سببا لضرر شخص آخر. إن الجزء الوحيد من سلوك أي فرد والذي يطيع فيه المجتمع، هو ذلك الذي يتعلق بالآخرين، أما في الجزء الذي يخصه هو فقط فإن استقلاله مطلق بحق. إن الفرد سيد على نفسه وعلى جسده وعقله." [٢].ويلخص ذلك بأمرين:

أولا:أن الفرد ليس مسؤولا أمام المجتمع عن أفعاله طالما أنها لاتخص أي شخص سواه.

ثانيا:أن الفرد مسؤول عن الأفعال التي تلحق الضرر بمصالح الآخرين [٣].

٤-علاقة التنوير بالليبرالية:

---

(١)النفعية ص(٢١).

(٢)عن الحرية ص(١٥).

(٣)عن الحرية ص(١١٣).

إن التنوير يعد كالأصل الذي ظهرت منه الليبرالية الحديثة كما قال بيتر غاي[١]. وعصر الأنوار قد شهد ميلاد النظرية السياسية الليبرالية[٢]. فأصول الليبرالية متداخلة مع أصول التنوير، لأنها منبثقة منه، والعلاقة بين التنوير والليبرالية جد ظاهرة، فالتنوير حركة عقلانية حاربت السلطة الدينية، وهدفت لتحقيق الحرية والتقدم، لذا فإن الليبرالية بمعنى التحررية هي أصل من أصول التنوير، "فالتنوير اختار الليبرالية"[٣]، ناقضين بذلك سيطرة الكنيسة، وعقودا من الطغيان والاستبداد.

ويحرص الفكر الليبرالي على إرجاع ميلاد الحرية بمدلولها الفردي إلى القرن الثامن عشر، أي إلى نظرية العقد الاجتماعي[٤]. إلا أن الحرية الليبرالية ركزت على تفصيلات الحرية الفردية الاقتصادية والفكرية ونظرياتها، وتخصصت لتصبح مذهبا خرج من مظلة التنوير.

لقد اهتم عصر الأنوار بالتحرر السياسي فأنجز بذلك الميلاد الفعلي للنظرية السياسية الليبرالية، إذ سيجري فيه تمثل الفرد بوصفه كائنا سياسيا، والتأسيس لفكرة الحرية الليبرالية بوصفها لفظا دالا على إطلاق كينونة الفرد من قيد الاستبداد، فحرية الفرد تمثلها الفكر السياسي الأنواري في القرن الثامن عشر بوصفها حقا نابعا من طبيعة الكائن الإنساني.إلا إن الليبرالية بدءا من القرن التاسع عشر وإلى اللحظة الراهنة ليست دعوة إلى حرية الفرد بوصفه كائنا إنسانيا، بل بوصفه مالكا اقتصاديا، فهي تتقصد تحرير القوة الاقتصادية، لتنتهي إلى التأسيس لاستبداد رأس المال، دونما حاجز قيمي أو مصلحي عام[٥].

وبالرغم من كون نظريات العقد الاجتماعي لفلاسفة التنوير قد دفعت إلى ليبرالية سياسية جاءت لاحقا، كما" تبنى مونتسكيو قضية الإصلاح القانوني، إذ اقترح في كتابه روح القوانين عددا من الإجراءات التي تهدف إلى جعل القانون أكثر تحررا"[٦]، فقد كان تطبيق سياسة

---

(١)دوريندا أوترام، التنوير ، ص(٢٨٨).

(٢) انظر: نقد الليبرالية ص(١٤١).

(٣) جدل التنوير ص(١١٠).

(٤) انظر: نقد الليبرالية ص(١٣٩).

(٥) انظر: نقد الليبرالية ص(١٤٣-١٤٤) (١٥٢)باختصار وتصرف.

(٦)غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة ص(١٧٧)، وانظر: روح الشرائع(١/٧١-٧٧، ١٨٢)(٢/٢٣٨).

التنوير بكل مافيها من العقلانية العمومية، لايزال معتمدا في الغالب على البقاء المادي أو الإرادة البشرية للملك[١]، حيث أراد الاقتصاديون الفيزوقراطيون "أن يفعلوا كل شيء عن طريق قرار صاحب السيادة"[٢]. فقد كان هناك موافقة على استبداد مستنير، وهذا يختلف عن مطالب الليبرالية الاقتصادية، والسياسية، التي تصر على التحرر من سلطة الدولة.

ولكون الليبرالية لاتمثل عقيدة محددة، بل هي حرية العقيدة، نجد بعض المفكرين يتخذ مواقف ليبرالية في نظرياتهم السياسية، مع اعتناقهم في مجالات أخرى أفكارا مختلفة جذريا عن الليبرالية[٣]. كما عمد جون ستيوارت مل-وهو من مؤسسي الليبرالية- إلى تخفيف عقلانية التنوير الصارخة بمشاعر الشك والاستجابات العاطفية، اللاعقلانية[٤].

٥-النقد الموجه لليبرالية:

مما لاشك فيه أن الإسلام بتشريعاته السمحة قد كفل للناس حرية منضبطة بضوابط الشرع، حيث حرر البشرية من عبودية البشر، إلى السمو بعبادة خالق البشر، كما ضبط شتى التعاملات بين الناس بضوابط العدل، وحرم كل مافيه ضرر على النفس، فمن الظلم والباطل مخالفة أوامر رب العالمين، ومساواة الدين الذي أمر به الله تعالى بغيره من الوثنيات والفلسفات.

إن الليبرالية الغربية وقد قامت على التحرر من سلطة الدين وخلع عباءته قد وصمت نفسها بالكفر. وقد انتقد الغربيون أنفسهم الفلسفة الليبرالية، حيث يرى جيمس بيرنهام James Burnham(١٩٠٥-١٩٨٧) أن الليبرالية هي أيديولوجية الانتحار الغربي، وهي أحد تعابير التناقض والانهيار الغربيين[٥].

لقد آمنوا بالحرية للجميع، لكن كان المخرج كما يرى برينتون هو الإيمان بالحرية دون الإباحة، وبينهما فارق أخلاقي[٦]. كما أوضح بعضهم ضوابط الحرية المفترضة، حيث يقول الأمريكي

---

(١)أوترام، التنوير ، ص(٣٠٨)، غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة ص(١٧٥).

(٢)غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة ص(١٧٥).

(٣) انظر:حكمة الغرب ص(٨٢/٢)بتصرف.

(٤)نقلا عن:برينتون،تشكيل العقل الحديث ص(٢٤٢).

(٥) في كتابه "انتحار الغرب، معنى الليبرالية وقدرها"، نقلا عن انتحار الغرب لريتشارد، وكريس ص(٢٥).

(٦)انظر:تشكيل العقل الحديث ص(٢٣٥).

بنيامين رش:"الحرية من دون فضيلة لن تكون نعمة بالنسبة إلينا"[١]. ويقول:"إن الأساس الوحيد لتربية مفيدة ونافعة في جمهورية؛ يجب أن يدخر في الدين، فمن دون الدين لايمكن أن تكون هناك فضيلة، ومن دون الفضيلة لايمكن أن تكون هناك حرية، والحرية هي هدف كل الحكومات الجمهورية وحياتها"[٢].

والليبرالية بوصفها مذهبا يطلق الفردانية من أي ضابط قيمي غير ضابط المنفعة المحددة كميا تتضاد مع أساس القيم الأخلاقية، لأنه ليس لها مرجعية نظرية ولا تطبيق مجتمعي يسند القيم الأخلاقية، حيث أن الرؤية الليبرالية للاجتماع تتأسس على منظور فرداني يتقصد الربح والمنفعة الشخصية، وليس المجتمعية التي هي بحاجة إلى الأساس الأخلاقي[٣].

إن الفلسفة الأخلاقية الليبرالية هي في جوهرها غير أخلاقية، بل ابتذلت الأخلاق، وحولتها لقيمة مادية، فاللذة تقاس بقيمة المال المصروف في تحصيلها وفقا لنفعية بنثام الموغلة في حسية مبدأ المنفعة واللذة، والأخلاق لم تعد قيما عليا والتزاما، بل مجرد قيم تجارية تقاس كميا بمبدأ المنفعة في مردودها الفردي[٤].كما توسعت النزعة الفردية في القرن التاسع عشر حتى أفرزت فلسفة القوة التي تعلي من قدر الإرادة الذاتية للأقوى، وهي مضادة تماما لليبرالية[٥].

واستتبعت الليبرالية الجديدة الكثير من التدمير الخلاق، ليس فقط للأطر والقوى المؤسساتية، بل حتى لتقسيمات العمل والعلاقات الاجتماعية وطرق الحياة والتفكير والتكاثر والعادات. وحيث يحل العقد الآني والمؤقت محل المؤسسات الدائمة في السياقات المهنية والوجدانية والجنسية والثقافية والأسرية والدولية إضافة إلى الشؤون السياسية[٦]. وعارض رجال الاقتصاد الليبراليين نظام المعونة والصدقة للفقراء، ورأوا أنها عمل سيء في حق كل إنسان[٧]، رغم أنها مظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي، والرحمة.

---

(١)نقلا عن :غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة ص(٢١١).

(٢)غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة ص(٢١٣).

(٣) انظر: نقد الليبرالية ص(١٤٦).

(٤) انظر: نقد الليبرالية ص(١٥١)بتصرف.

(٥)انظر:حكمة الغرب ص(٢/٨٠-٨٢)بتصرف.

(٦)ديفيد هارفي،الليبراليون الجدد ص(١٣-١٥).

(٧) تشكيل العقل الحديث،(١٩٠).

ورغم أن مل عارض إجبار الآخرين على الحرية والمساواة[١]، إلا أن الليبرالية تمادت إلى حد شن الحروب لإيصال الحرية للشعوب!! حتى قيل: "لابد من تحرير الإنسان من الليبرالية"[٢]. وهذا يوضح بجلاء فساد نبوءة فوكو ياما وقوله:إن" التاريخ يتخذ مسارا واضحا تحدده الرغبة المتعلقة والاعتراف العقلاني، وبالرغم من أن الديمقراطية الليبرالية هي في الحقيقة خير حل ممكن للمشكلات الإنسانية. ومن المحتمل...أن تصبح فكرة التاريخ العام والغائي للبشر –الذي يؤدي بنا إلى الديموقراطية الليبرالية– أكثر قبولا لدى الناس"[٣]. لقد كانت أطروحة غير صحيحة[٤].

وهناك من يحيل نجاح الغرب إلى ست فكر رئيسة؛ يجعل منها الليبرالية والفردية،مع أنه في الحقيقة يكشف طبع الحضارة الغربية وخاصياتها، ويوضح أسباب الانتشار الواسع لعدم الثقة في الغرب[٥]، لئن كان هناك نجاح مادي وتقني، فإن ضياع الدين القيم والأخلاق، وتفكك المجتمع، نسف قيمة هذا النجاح. ولذلك فمن مهددات الليبرالية تزايد انفصالها الكامل عن قاعدتها الأخلاقية، والالتزام الذي يزداد ضعفا نحو الجماعة، وفقدان العاطفة الحقيقة من ناحية الليبراليين، فمن أبرز مايلاحظ هو الفراغ الأخلاقي المتزايد لليبرالية، وفقدانها المثل العليا السامية والخواء العاطفي في قلبها[٦].

وكلما توغل المرء في الليبرالية انكشفت له أكثر، حتى يغدو الإيمان بفضائل الليبرالية–بين الغربيين أنفسهم– أكثر صعوبة في الوقت الذي تنضج فيه المجتمعات الليبرالية. ويصرح بعض المفكرين الغربيين بأنه يوجد دافع قوي داخلي لليبرالية نحو تدمير الذات[٧].

---

(١) انظر: جون ستيورات مل،عن الحرية ص(١١١).

(٢) الطيب بو عزة، نقد الليبرالية ص(٩).

(٣)فرنسيس فوكو ياما، نهاية التايخ، ص(٢٩٣).

(٤)انظر مزيد من التوضيح :انتحار الغرب ص(٢٠٧).

(٥) انظر:انتحار الغرب ص(١٥-١٦).

(٦)ينظر:انتحار الغرب ص(٢١٣-٢١٤) ملخصا.

(٧)انتحار الغرب ص(٢١٥).

المسألة الثالثة:العلمانية وعلاقتها بالتنوير والليبرالية.

١-تعريف العلمانية:

العلمانية ترجمة خاطئة لكلمة Secularism الإنجليزية، والترجمة الصحيحة للكلمة هي اللادينية، أو الدنيوية، وهو ما لا صلة له بالدين، أو ماكانت علاقته بالدين علاقة تضاد[١].

حيث نجد في معجم أكسفورد: " Secularism الاعتقاد بأن القوانين، والتعليم، وغيرها من الأنظمة، يجب أن تبنى على الحقائق والعلم بدلاً عن الدين.

Secular:١-ليس مهتماً بالشؤون لا الروحية ولا الدينية لهذا العالم، التعليم اللاديني، الفن والموسيقى اللاديني، القوى اللادينية للدولة.

٢-لا ينتمي إلى مجتمع العُبَّاد."[٢].

والعلمانية تعني:"أن تقوم الحياة في المجتمع والدولة على ضوء المعطيات التي يوفرها سير الحياة الطبيعية في العالم"[٣]، أي بعيدا عن الدين. ويختصر مارسيل غوشيه Marcel Gauchet العلمانية بالخروج عن الدين[٤].

ويرى غي هارشيرGuy Harscher أن العلمانية تحيل إلى مفهوم سياسي: فالدولة العلمانية هي التي لاتمنح امتيازا لأي ملة، وبشكل أعم لأي تصور محدد للحياة الصالحة، في الوقت الذي تكفل فيه حرية التعبير عن كل منهما ضمن حدود معينة[٥]. ويعرف العلمانية في معناها الواسع بأنها الأنظمة التي تحترم حرية الضمير. أما في معناها الضيق فهي تأكيد الحرية الدينية، ومبدأ فصل الدين عن الدولة[٦]. فهي لادينية الدولة بحيث لاتتبنى الدولة أي دين، وتكفل للجميع الحرية الدينية. ووفقا لغي هارشير هناك مدلولان للعلمانية:

الأول:يقتضي فصلا جذريا للدولة عن المذاهب الدينية؛ فهي فصلية وأكثر تصلبا.

---

(١)انظر:سفر الحوالي، العلمانية ص٢١.

(٢)Oxford Advanced Learner's Dic. Of current English: p.١٠٦٢

(٣)محمد مهدي شمس الدين، العلمانية، ص(١٢٦).

(٤)انظر: مارسيه غوشيه، الدين في الديمقراطية،مواضع كثيرة من الكتاب منها ص(٢٣،٤٩).

(٥)انظر: غي هارشير، العلمانية،ص(٦).

(٦)انظر: غي هارشير، العلمانية،ص(٥).

والثاني:أوالعلمانية بالمعنى الواسع للتعبير، وهو الذي تعترف به –وتطبقه عموما–الدول الديموقراطية المعاصرة، والذي يجمع بين مبدأ حرية الضمير ومبدأ عدم التمييز لأسباب دينية، فالدولة ملك للشعب كله، لا لأتباع تصور ما للحياة الصالحة، دينيا كان أم دنيويا. فهي علمانية منفتحة أكثر مرونة وحيادية وأكثر شيوعا(١).

إلا أن المدلول الأول لطبيعة توجه الدولة العلمانية ليس فقط معارضا لتدخل الدين في الحياة العامة، بل معاد للدين كذلك(٢).

ومن جهة أخرى يصنفها الدكتور المسيري إلى نوعين:

الأولى: علمانية جزئية وهي فصل الدين عن الدولة. وهذا أكثر التعريفات شيوعا للعلمانية في العالم سواء في الشرق أو الغرب. وهي تحصر عمليات العلمنة في المجال السياسي وربما الاقتصادي أيضا، وفي بعض المجالات في رقعة الحياة العامة، وتستبعد شتى النشاطات الإنسانية الأخرى أو تلزم الصمت بخصوصها. لذا لايتفرع عنها منظومات معرفية أو أخلاقية. وهي مرتبطة بالمراحل الأولى لتطور العلمانية.

والثانية: علمانية شاملة، وهي فصل كل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية، لا عن الدولة فحسب، وإنما عن الطبيعة وعن حياة الإنسان في جانبيها العام والخاص. وهي رؤية شاملة للعالم ذات بعد معرفي، وهي رؤية عقلانية مادية، تدور في إطار المرجعية الكامنة، والواحدية المادية التي ترى أن مركز الكون كامن فيه، غير مفارق أو متجاوز له(٣).

وبمرور الزمن تراجعت العلمانية الجزئية وهمشت، إذ تصاعدت معدلات العلمنة بحيث تجاوزت مجالات الاقتصاد والسياسة والأيديولوجيا، وأصبحت العلمنة ظاهرة اجتماعية كاسحة، وتحولا بنيويا عميقا يتجاوز عملية فصل الدين عن الدولة(٤). بينما يؤكد هارشير على أن طابع علمانية سنوات ١٨٨٠–١٩١٠ المعادي للدين لم يكن في النهاية سوى طابع ظرفي، وأنه يجب التمييز

---

(١)انظر: غي هارشير، العلمانية،ص(١٠٧-١٠٩).

(٢)انظر: غي هارشير، العلمانية،ص(٨٠)بتصرف.

(٣)انظر: عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة(١/١٦-١٧،٢٢٠)بتصرف.

(٤)انظر: العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة(١/٢٠)بتصرف.

بين الطارىء والأساسي[١]، إلا أن هذا يرده علمانية فرنسا المتطرفة إلى اليوم، وتطرف العلمانية الأتاتوركية كذلك. حيث لم تفصل الدولة عن تصورات الحياة الصالحة بقدر ما أمست ناطقة باسم أخلاق وقيم، وبصورة خاصة باسم مثل عليا عقلانية ومضادة للدين[٢].

٢-تاريخ ظهور المصطلح:

كان لفظ العلمانية يستخدم-كما هو معناه اللغوي- للدلالة على اللاديني، أو مالاعلاقة له بالدين، في مقابل الشيء الديني، فالمحاكم العلمانية تقابل المحاكم الدينية، والقضاء العلماني مقابل القضاء الكنسي. يقول مونتسكيو وهو يتحدث عن المبارزة القضائية، وبيّنات النفي لدى الإمبراطورية الرومانية وغيرها:"وقد أعجبت المحاكم العلمانية بكل منهما، وقد نبذت المحاكم الكنسية كلا منهما"[٣]، ويقول في النفقات:"قديما كان لايحكم بالنفقات في المحاكم العلمانية"[٤]، ويقول:"حدود القضاء الكنسي والعلماني معروفة قليلا في تلك الأزمنة...القضاء العلماني...العلمانيون...المحاكم العلمانية..مد القضاء الكنسي والقضاء العلماني وجزرهما"[٥]. ويقول إدوارد جيبون:" والحق أن تقسيم الناس إلى روحانيين وعلمانيين كان أمرا معروفا لدى كثير من الأمم القديمة"[٦].

وفي الولايات المتحدة نجد التطبيق العملي للعلمانية مع عدم معرفتها بهذا المصطلح، فقد علمنت الدولة الاتحادية الفيدرالية بجعلها مستقلة عن العقائد الدينية قبل العديد من الدول الأوروبية، ومنها فرنسا نفسها.إذ كفل التعديل الأول الذي أجري عل الدستور الأمريكي عام١٧٩١ الفصل بين الكنائس والدولة الاتحادية، وأكد أن لاوجود لأي دين رسمي مقرر أي

---

(١)انظر: غي هارشير، العلمانية،ص(٨٣)بتصرف.

(٢)انظر: غي هارشير، العلمانية،ص(٢٧)بتصرف.

(٣)مونتسكيو، روح الشرائع (٣٠٩/٢).

(٤)روح الشرائع (٣٤٥/٢).

(٥)روح الشرائع(٣٥٦/٢-٣٥٧).

(٦)إدوارد جيبون،اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، (٤١٨/١).

ذي امتياز سياسي، كما كفل الحرية الدينية المطلقة[١].أما في فرنسا فنجد علمنة الأحوال المدنية قررها دستور ١٧٩١، وكانت صيغة الفصل الأولي بين الدولة والكنيسة في دستور السنة الثالثة عام ١٧٩٥ والتي طرأ عليها تعديلات فيما بعد[٢]. إلى أن توسعت دلالة الكلمة دون أن تصل إلى الشمول الكامل على يد جون هوليوكJohn Holyooke (١٨١٧-١٩٠٦) فهو أول من سك المصطلح بمعناه الحديث[٣].

٣-علاقة العلمانية بالتنوير:

يرى الدكتور المسيري:" أن ثمة ترادف بين كلمتي استنارة وعلمانية"[٤]. حيث"أكد المستنيرون على ضرورة فصل الدين عن الدولة، وعن رقعة الحياة العامة التي يمارس فيها المواطن حقوقه وحرياته والتي يحتكم فيها إلى عقله وحسب"[٥]. كما أن التنوير حركة لادينية وكذلك العلمانية لادينية. وكل منهما كان ناقدا للدين، ويرى إقامة الحياة على العلم الوضعي والعقل بدل الدين. وتفترق العلمانية المتطرفة عن التنوير، حيث يزعم التنوير مع نقده للدين منح الشعب حرية المعتقد، بينما تحارب العلمانية وتحظر الرموز الدينية. إلا أن أمريكا رغم علمانيتها "وعلى الرغم من أن الدين ليس له وجود في الدستور، فإنه راسخ بقوة في المجتمع، الذي هو نفسه البنية الأساسية للحكومة. وكتب توكفيل يقول: إن فلاسفة فرنسا اعتقدوا"أن الحماسة الدينية.. تخمد عندما تزيد الحرية، والتنوير"، واستهجنت أمريكا هذه النظرية وكان الشيء الأول الذي أذهله عند وصوله إلى الولايات المتحدة هو طبيعة البلد الدينية، يقول:"لقد رأيت بيننا- أي بين الفرنسيين- روح الدين وروح الحرية يتحركان باستمرار في الأغلب في اتجاهات متعارضة. أما هنا فقد وجدتهما متحدين كل منهما مع الآخر بصورة وثيقة: فهما يسودان معا على التربية

(١)انظر: غي هارشير، العلمانية،ص(٥-٦)، وكثيرا مايقال:إن الدولة في الولايات المتحدة علمانية، والمجتمع متدين، حيث يمنح العرف الأمريكي الدين حضورا مرئيا لايحظى بمثله في أوروبا، وإن كان هذا الدين رمزي بحت ويصلح لجميع الديانات السماوية.نفس المصدر ص(١١١-١١٢).

(٢)انظر: غي هارشير، العلمانية،ص(١٧)، مارسيه غوشيه، الدين في الديمقراطية، ص(٤٩).

(٣)انظر: عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة(١/٥٤).

(٤)فكر حركة الاستنارة ص(٤).

(٥)فكر حركة الاستنارة ص(٤٠).

نفسها"[١]. بمعنى أن الحرية الدينية في أمريكا هي الجوهر وليس عداء الدين كما هو أصل التنوير الفرنسي، وذلك راجع إلى نمط العلمانية في أمريكا فهي ليست علمانية متطرفة كما في فرنسا. إلا أن التنوير بأصوله يشمل العلمانية، فالعلمانية أخص من التنوير. حيث إن "فكر حركة الاستنارة هو الأساس الفلسفي الذي تنطلق منه العلمانية الشاملة"[٢]. فالتنوير بعزله للكنيسة كرس للتطبيق العملي للعلمانية. وقد قام التنوير بالدفاع عن العقلانية ومبادئها كنظام تشريعي للأخلاق والمعرفة بدلا من الدين. ومن هنا نجد أن عصر التنوير هو بداية ظهور الأفكار المتعلقة بتطبيق العلمانية.كما أن العلمانية باتت نظاما سياسيا، بينما علمانية الفكر تمثل التنوير. واهتم التنوير بالدين الطبيعي والتنمية المجتمعية، بينما لم تهتم العلمانية بذلك.

والخلاصة أن العلمانية بجميع صورها تعد من نتاج التنوير، وإن حصل لها بعض التخصص.

٤-علاقة العلمانية بالحداثة والليبرالية:

يقيم مارسيل غوشيه علاقة ترادف بين التحديث والعلمنة وهي الخروج من الدين، وهذه القطيعة مع الدين هي ما يمكن أن نطلق عليه اسم العلمنة، ويفسر الخروج من الدين بأنه لايعني التخلي عن المعتقد الديني، وإنما الخروج من عالم يكون الدين فيه بحد ذاته منظما بنيويا، يوجه الشكل السياسي للمجتمعات ويعين البنية الاقتصادية للرباط الاجتماعي[٣].

والعلمانية تحتوي على مباديء ليبرالية، إلا أن شيئا من التناقض بين العلمانية المتطرفة والليبرالية، فمنهج العلمانية في الفصل بين الدين والدولة "لايعبر على الأرجح تماما عن عملية التحرر السياسي المطبقة في المجتمعات الديمقراطية المعاصرة"[٤]. حيث التأويل الليبرالي البحت للعلمانية يكتفي بفكرة الدولة الحكم، التي تضمن الحريات الكبرى: حرية الضمير والعبادة والتعليم والاجتماع، بحيث تترك كليا لأفراد المجتمع المدني التصرف مع اختزال دورها إلى مجرد دركي[٥]، فالليبرالية تفترض ضرورة العدالة مع جميع المواطنين بغض النظر عن انتمائهم الديني، متفقين

(١)توكفيل نقلا عن :غيرترود هيملفارب، الطرق إلى الحداثة ص(٢١٤).

(٢) عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة(١/٢٩٠).

(٣)انظر: مارسيل غوشيه، الدين في الديمقراطية، مسار العلمنة، ص(٢٧)، وسيأتي مزيد توضيح عند بحث الحداثة.

(٤)غي هارشير، العلمانية،ص(٨٧).

(٥)انظر: غي هارشير، العلمانية ص(٨٨).

بذلك مع العلمانية المعتدلة من حيث موقف الدولة المحايد من الدين، وهو مغاير للواقع المتطرف الذي تنتهجه العلمانية السائدة. وبينما يكمن جوهر العلمانية في عملية الفصل بين الدين وشؤون الحياة، فإن جوهر الليبرالية هو الحرية الفردية.

٥–نقد العلمانية والتنوير:

إن تنكر التنوير الأوروبي والعلمانية للدين ظاهر، فهي كفر بالدين، وإلغاء وتهميش وعزل له. وهذا يقضي بمجتمعات تعيش في خواء روحي وأخلاقي، وهو حقيقة دمار المجتمعات، يقول جيفرسون:"لم توجد أمة أو حكومة على الإطلاق من دون دين ولا يمكن أن توجد"(١). ويقول واشنطن محذرا مواطنيه أن التنوير ليس بديلا من الدين، وأن لايطلقوا العنان لافتراض أن الأخلاق يمكن تدعيمها والمحافظة عليها من دون الدين، ومهما يتم التسليم بتأثير التربية الرفيعة والمهذبة في عقول بنية معينة، فإن العقل والتجربة يمنعاننا من أن نتوقع أن الأخلاق الوطنية يمكن أن تهيمن عند استبعاد المبدأ الديني. ويقول جون آدمز:"إن دستورنا لم يوضع إلا من أجل شعب أخلاقي ومتدين"(٢).

وانزعج الفلاسفة في فرنسا من بعض نتائج ذلك الفصل، بسبب إلغاء المؤسسات الخيرية والمدارس التي تديرها الكنيسة والتي لم يوجد لها بديل(٣). واعترفوا بأفضال الإيمان الديني على الأخلاق، والأسرة، والمجتمع، وقد وصف أحد المؤرخين إيمان الفلاسفة الفرنسيين بالفائدة الاجتماعية للدين بأنه"مفارقة وتناقض"(٤).

وامتدت آثار العلمانية والتنوير على كافة مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفنية. لتترك الإنسان مشتتا لاهثا لايدري أين مصيره، ولا ماضيه، متنكرا لمبدأ وجوده، فلا عجب أن يظهر في هذه البيئة العديد من المذاهب التي ارتدت على نفسها ونقضت كل شيء، نقضت الأخلاق والقيم، بل والعقل الذي عبده أهل التنوير والحداثة والعلمانية، وأعلن بعض

---

(١)نقلا عن : الطرق إلى الحداثة ص(٢١٧).

(٢)نقلا عن : الطرق إلى الحداثة ص(٢١٩).

(٣)انظر: الطرق إلى الحداثة ص(١٩١)بتصرف.

(٤)انظر: الطرق إلى الحداثة، ص(١٦٥).

رؤوسهم الحرب على المجتمع[١]، ووصم أهل العلم والمعرفة بأقذع أنواع السباب، ووصمهم بالكذب والدجل والانحطاط. وظهرت الأفكار الوجودية، والعدمية، وغيرها من المذاهب التي تحكي ضياع المجتمع المتغطرس الذي نزع رداء الدين، وغلا في عقله وفكره، ونظر من علياءه ليرى نفسه متكشفة في ضعفها، وجهلها، فيزداد حيرة وشكا. لذا فإن الإنسان مهما جرب من عقائد وأفكار فإنه مضطر في نهاية المطاف للعودة إلى الدين. وهذه الحالة أصبحت ملحة أكثر في الغرب حاليا. يقول أندريه مالرو André Malraux (١٩٠١-١٩٧٦): إن القرن الحادي والعشرين سوف يكون روحيا أو دينيا أو أنه لن يكون[٢].

المسألة الرابعة:الحداثة وعلاقتها بالتنوير والعلمانية.

أحدثت الدراسة الغربية لتاريخ التراث والفكر اليوناني القائم على الأسطورة، وتاريخ التراث المسيحي بما فيه من معلومات، وتحديدات تاريخية مناقضة للعلم ولما ثبت في تاريخ حضارات مصر والصين، ردة فعل عند بعض المفكرين الغربيين أدت إلى فقدان الثقة في الماضي، وتجاهل التاريخ، والإيمان بالحاضر، والنظر للمستقبل، "لقد حدث انهيار كبير، ولم يعد يرى بعده أي شيء مؤكد إلا الحاضر، وكل ماهو سراب توجب ارتداده نحو المستقبل"[٣].

١-تعريف الحداثة:

ينقل جياني فاتيمو Gianni Vattimo[٤] تعريفا لمنظرين للحداثة فيقول:"الحداثة هي تلك الحقبة حيث يصير "الوجود حديثا" قيمة، أو حتى القيمة الأساسية التي تحال إليها كل القيم"[٥]. ويرى أن هذا التعريف يلتقي مع تعريف آخر للحداثة "بوصفها عملية علمنة وتزمين-شأنها شأن كلمة حديث-، هي في الوقت نفسه الكلمة التي تصف ماحدث في عصر ما، وتحدد سمته بهذا الشكل، والقيمة التي تحكم الوعي وتوجهه في ذاك العصر بشكل خاص

(١)كما فعل نيتشه، انظر كتابه هذا هو الإنسان.

(٢)انظر: مدخل إلى التنوير الأوروبي ص(٢٤٦).

(٣)بول هازار، أزمة الوعي الأوروبي ص(٤٦).

(٤)جياني فاتيمو،فيلسوف إيطالي، مابعد حداثي، ولد عام ١٩٣٦م.

(٥)جياني فاتيمو، نهاية الحداثة ص(١١٤).

بوصفها إيمانا بالتقدم(إما معا:إيمان معلمن وإيمان بالعلمنة)" [١]. حيث"يتماهى الإيمان بالتقدم، المفهوم بوصفه إيمانا بالسيرورة التاريخية، والتي تتجرد أكثر فأكثر من المرجعيات الدينية وماوراء التاريخية، يتماهى بكل بساطة مع الإيمان بقيمة الجديد"[٢].

ويصف ماكس فيبر Max Weber (١٨٦٤-١٩٢٠)الحداثة الثقافية:"بأنها فصل العقل الجوهري الذي يعبر عنه الدين وماوراء الطبيعة إلى ثلاثة مجالات مستقلة، وهي العلم والأخلاق والفن"[٣]. ويرى بيتر بروكرPeter Brooker أنه قد تشتت شمل هذه الرؤية في القرن العشرين، لأنه أدى إلى استقلالية الفروع التي يتعامل معها المتخصصون، وفصلها عن تفسيرات التواصل الفكري اليومي، وأصبحت المشكلة: هل علينا أن نتشبث بأهداف التنوير مهما كانت ضعيفة؟ أم هل ينبغي أن نعلن أن مشروع الحداثة يعد قضية خاسرة في مجمله؟[٤].

ويعرف جيف فاونتين Jeff Fountain الحداثة بأنها:"سلسة من التحولات في المجتمع المعاصر قائمة على أساس التمدن والتصنيع، والعلم والتكنولوجيا والتي أصبحت أساسا لفكرة الشك الديني، وعدم الاعتقاد بصحة الكتب المقدسة"[٥].

وعليه في المقابل من المستحيل أن نطلق كلمة حديث على مجتمع يسعى قبل كل شيء لأن ينتظم ويعمل طبقا لوحي إلهي أو تنظيم قومي. وليست الحداثة مجرد تغيير أو تتابع أحداث: إنها انتشار لمنتجات النشاط العقلي، العلمية التكنولوجية الإدارية. والحداثة تستبعد أي غائية، فالعلمنة وإزالة سحر الأوهام اللتان يتحدث عنهما فيبر واللتان تحددان الحداثة باعتبارها عقلنة، تبرزان القطيعة الضرورية مع الغائية الدينية التي تنادي دوما بنهاية للتاريخ، حيث تحل الحداثة فكرة "العلم" محل "الله" في قلب المجتمع، وتقصر الاعتقادات الدينية على الحياة الخاصة، وترى أنه ينبغي حماية النشاط العقلي من الدعايات السياسية أو من الاعقادات الدينية[٦].

---

(١)جياني فاتيمو، نهاية الحداثة ص(١١٤). وينتقد فاتيمو هذا التعريف ص(١١٨).

(٢)جياني فاتيمو، نهاية الحداثة ص(١١٤).

(٣) نقلا عن بيتر بروكر،الحداثة ومابعد الحداثة ص(٢٠٨).

(٤)بيتر بروكر،الحداثة ومابعد الحداثة ص(٢٠٩).

(٥)جيف فونتين، مابعد الحداثة ، نقلا عن باسم خريسان، مابعد الحداثة، ص(٤٧).

(٦)انظر: آلان تورين،نقد الحداثة،ص(٢٩)، القول الفلسفي للحداثة ص(٧-٨).

أما العقلانية في الحداثة؛ فيرى هابرماس أن فك السحر عن العالم-حسب وصفهم للحداثة- الذي تلاه تفكك التصورات الدينية للعالم تفككا أوجد في أوروبا ثقافة لادينية هو عملية عقلانية[١].كما يُعرّف المفهوم الكلاسيكي والفلسفي للحداثة بأنه انتصار للعقل وتحرر وثورة[٢]. وتوقف بودليرBaudelaire (١٨٢١-١٨٦٧) على خصائص أربع للحداثة الفنية، وهي: غير المنتهي أو غير الناجز، والمتبعثر أو المتقطع، والتفاهة أو فقدان المعنى، وأخيرا الاستقلالية الذاتية للعمل الفني[٣].

ترتكز الحداثة إذن على فكرة العقلانية، والتقدم، والعلمنة، والقطيعة مع التراث والدين، وهي لاتختص بمنحى معين كالفن والأدب مثلا، بل تشمل جميع مناحي الحياة. ويقترح آلان تورين إعادة تعريف الحداثة كعلاقة يسودها التوتر بين العقل والذات وبين العقلنة وتحقيق الذات، بين روح النهضة والإصلاح، بين العلم والحرية، وهو موقف بعيد عن حداثية اليوم التي دخلت في مرحلة الانهيار، وعن مابعد الحداثية التي يجول شبحها في كل مكان[٤]. وهو محاولة إصلاحية من تورين لإخراج الحداثة من مأزقها، وإعادة ضبطها، كما فعل هابرماس في مقاله "الحداثة مشروع لم يكتمل".

٢-تاريخ ظهور المصطلح، وأبرز رموز الحداثة:

لفظ حديثModern: مستعمل بكثرة منذ القرن العاشر في المساجلات الفلسفية والدينية[٥]. ويرى هانز كونغ Hans Kong[٦] أن كلمة حديث قديمة[٧] ولكنها لم تستخدم للدلالة الإيجابية على الحساسية الجديدة إلا في بداية عصر التنوير أو حتى قبله بقليل[٨].

---

(١)انظر: القول الفلسفي للحداثة ص(٥).

(٢)نقد الحداثة.ص(٥٢).

(٣)مابعد الحداثة والتنويرص(٤٣).

(٤)انظر: نقد الحداثة.ص(٢٣).

(٥)موسوعة لالاند ص(٨٢٢).

(٦)عالم دين سويسري ولد عام ١٩٢٨، له كتابات في مدح الإسلام ونبي الإسلام، ومنها كتابه "المسيحية والأديان الأخرى"، ويرى البعض-كالدكتور راغب السرجاني في كتابه عظماء أسلموا- أنه اعتنق الإسلام.

(٧)يرجعها البعض إلى القرن الخامس الميلادي انظر:الحداثة ومابعد الحداثة، ص(١٩٩)،مابعد الحداثة والتنوير، ص(٤١).

(٨)انظر:مدخل إلى التنوير الأوروبي ص(٢٤٠).

أما لفظ الحداثة Modernity فلم يأخذ دلالته إلا عام ١٨٤٩ تحديدا، كما ارتبطت بأعمال شارل بودلير، وبالذات نصه الذي كتبه عام ١٨٥٩[١].

ويعتبر الحداثيون هيجلHegel (١٧٧٠-١٨٣١) الفيلسوف الأول الذي نما بكل وضوح مفهوما للحداثة[٢]، فهو أول من وضع في مسألة فلسفية قطيعة الحداثة مع الإيحاءات المعيارية للماضي الغريب عنها[٣]. ويعتبر يورجن هابرماس الممثل الأبرز لتيار الحداثة في الفلسفة المعاصرة، وكتابه القول الفلسفي للحداثة يعد بيانا حداثيا متميزا، دعا فيه إلى ضرورة إعادة تفكير الحداثة على أسس جديدة، خاصة بعد النقد الذي طالها[٤].وقد أفل نجم الحداثة في سبعينات القرن العشرين،حيث ظهرت فلسفة جديدة في معاداة الحداثة[٥].

حيث تم تعقب أفكار الحداثيين، والنظر في منطقها والرد عليها، أي المواجهة الفكرية لها[٦]. وقد ناقش هابرماس كل من نيتشه وفوكو ودريدا وهيدجر وهوركهايمر وأدورنو، مدافعا عن الحداثة، منتقدا موقفهم. وهاجم هابرماس في مقاله عام ١٩٨٠ والذي بعنوان:"الحداثة مشروع لم يكتمل" دعاة مابعد الحداثة الذين يريدون القضاء على إنجازات الحداثة -من وجهة نظره-، و"اعترف هابرماس بأن الحداثة وصلت إلى مأزق أو جدار مسدود، واخترع مصطلحا ناجحا جدا للتعبير عن هذا المأزق هو: الظلمة الجديدة أو العتمة الجديدة"[٧]. وقدم بديلا في العقل التواصلي، يجمع فيه بين هيجل وكانط، عكس ماقامت به مابعد الحداثة من رفض لهيجل

---

(١)انظر: القول الفلسفي للحداثة ص(١٧-١٨)،مابعد الحداثة والتنوير ص(٤١-٤٢)،الحداثة ومابعد الحداثة، ص(٢٠١-٢٠٠)،مدخل إلى التنوير الأوروبي ص(٢٤١)، والنص المذكور لبودلير هو مقالة له بعنوان" رسام الحياة الحديثة"نشره في جريدة الفيجارو الباريسية.

(٢)انظر: القول الفلسفي للحداثة.ص(١٢).

(٣)القول الفلسفي للحداثة ص(٢٩).

(٤)انظر:مابعد الحداثة والتنوير ص(٤٧).

(٥)الحداثة ومابعد الحداثة،ص(٢٠٣)، نقد الحداثة ص(٢٠٦)(٢٣٨).

(٦)الحداثة ومابعد الحداثة ص(٢٠٥).

(٧)مدخل إلى التنوير الأوروبي ص(٢٤٣).

وارتباط بجماليات كانط[١]. ويميل آلان تورين إلى رأي هابرماس في إمكانية إصلاح الحداثة. أما المابعد حداثيين فإنهم يؤكدون أن تفكك الحداثة لارجعة فيه[٢].

٣-علاقة الحداثة بالعلمانية:

سبق أن بينت مابين العلمانية والحداثة من ترادف، وأنها تتفق على الخروج من الدين، وهذه القطيعة هي ما يمكن أن نطلق عليه اسم العلمنة، ويفسر مارسيل غوشيه الخروج من الدين بأنه لايعني التخلي عن المعتقد الديني، وإنما الخروج من عالم يكون الدين فيه بحد ذاته منظما بنيويا، يوجه الشكل السياسي للمجتمعات ويعين البنية الاقتصادية للرباط الاجتماعي[٣]، بمعنى إقصاء الدين عن إدارة شؤون الحياة. لذا فإن صياغة فكر سياسي واجتماعي جديد هو التكملة التي لاغنى عنها للفكرة الكلاسيكية عن الحداثة في ارتباطها بالعلمنة، حيث يحل المجتمع محل الله كأساس للحكم الأخلاقي، ويصبح مبدءا للتفسير وتقييم السلوك[٤]. يقول هابرماس:"يعتبر كل دين في الأصل تصورا عن العالم أو فهما عقائديا يطالب بحقه في السلطة لكي يبني شكلا من أشكال الحياة في كليته. لكن على الدين أن يستغني عن هذا الحق، والحق في احتكار التأويل وتنظيم الحياة الشامل، نظرا لشروط علمانية العلم، ومحايدة سلطة الدولة، والحرية الدينية الشاملة"[٥].

فالصلة بينهما بالغة الوضوح من وجوه:

الأول: تتميز الحداثة بوصفها حقبة العزوف عن رؤية قدسية للوجود وتأكيد القيم الدنيوية، أي بوصفها حقبة العلمنة.

الثاني:بكون المفهوم المركزي للعلمنة الإيمان بالتقدم، وإلغاء المرجعية المتعالية.

---

(١)انظر:مابعد الحداثة والتنوير ص(٥٢).

(٢)انظر: آلان تورين،نقد الحداثة.ص(٢٣٨).

(٣)انظر: مارسيل غوشيه، الدين في الديمقراطية، ص(٢٧).

(٤)انظر: آلان تورين، نقد الحداثة، ،ص(٣٧).

(٥)هابرماس، جدلية العلمنة.ص(٦٠).

الثالث: أن هذه العلمنة المتطرفة لتلك الرؤية للتاريخ بوصفه عناية، تكافيء ببساطة تأكيد الجديد بوصفه قيمة، وحتى بوصفه القيمة الأساسية [١].

٤-علاقة الحداثة بالتنوير:

يرى فوكو أن نص كانط[٢] يجذر الحداثة في التنوير، بل يجعله نقطة انطلاق الحداثة. حيث يقول:"دشن النقد الكانطي عتبة حداثتنا"[٣]. ويتفق معه هابرماس، لكنه ينتقده في جمعه بين الدعوة للتنوير ونقده الجذري للحداثة[٤]. وهذا النص يربط الحداثة بالتنوير لأنه يدعو لنزع جميع السلطات، والتحرر في الاحتكام للعقل وحده، حيث العقلانية والحرية من أصول التنوير والحداثة. وكتبت غيرترود هيملفارب "الطرق إلى الحداثة" وكان كتابها عن التنوير الفرنسي والإنجليزي والأمريكي، موضحة أنه كان طريقا نتيجته الحداثة.

وتتفق الحداثة مع التنوير في خلع سلطة الدين، ونبذ الغيبيات، والخضوع للقوانين الطبيعية التي يرونها هي الحرية الحقة، "يقول أنصار الحداثة:أنه لا المجتمع ولا التاريخ ولا الحياة الفردية تخضع لإرادة كائن أسمى يجب الإذعان له، أو يمكن التأثير عليه بواسطة السحر. الفرد لايخضع إلا لقوانين طبيعية، هذه هي فلسفة التنوير التي ينتمي إليها جان جاك روسو"[٥].

ومشروع الحداثة قد تم رسمه في القرن الثامن عشر على يد فلاسفة التنوير، وتوقف على مجهودات هؤلاء الفلاسفة[٦]. وكان" مايعنيهم وهم على قمة فلسفة التنوير أن يوحدوا بين العقل والإرادة، وأن يدافعوا عن حرية هي خضوع للنظام الطبيعي أكثر منها تمردا على النظام الاجتماعي، هذا هو المبدأ المركزي لهذا المفهوم الاستناري، فلم يكن يسمى بعد بالحداثة، ولكن ينبغي أن نطلق عليها هذا الاسم بأثر رجعي؛ فالحداثة ليست فلسفة للتقدم ..يمكننا أن نلمح

---

(١)جياني فاتيمو، نهاية الحداثة ص(١١٥).

(٢)سبق ذكر نص كانط في تعريف التنوير، انظر:جواب على السؤال:ماهي الأنوار، إيمانويل كانط ص(٨٥).

(٣)ميشيل فوكو، الكلمات والأشياء،ص(٢٠٨)، وانظر: مابعد الحداثة والتنوير،ص(٢٤٨).

(٤)انظر: بغورة ، مابعد الحداثة والتنوير، ص(٢٤٨).

(٥)آلان تورين ، نقد الحداثة،ص(٣٢).

(٦)الحداثة ومابعد الحداثة ص(٢٠٨-٢٠٩)، آلان تورين،نقد الحداثة، ص(٤٠).

فيها قطيعة مع التراث وفكرا للعلمنة، ولتدمير العالم المقدس"[١]. فقد ساهم عصر التنوير في بلورة قيم الحداثة وخاصة الإيمان بالعقل، والعلم والنقد والحرية والتقدم[٢].

٥-نقد الحداثة:

الحداثة في حقيقتها في جميع مساراتها كما سبق قطيعة مع الدين، وهي تتفق في ذلك مع العلمانية والتنوير. هذا وإن النقد الموجه للحداثة ليس فقط من المنظور الإسلامي، بل من المنظور الغربي أيضا، وكان نقدهم مرتكزا على أمور:

١- الخواء الروحي، والقضاء على الدين، فالحداثة بتركيزها على العلمنة والعقلانية، أبعدت الدين عن الحياة، وجعلته شيئا هامشيا يمكن الاستغناء عنه، بل حاربت الدين وجعلته من الماضي الذي ينبغي نسيانه. يقول هابرماس:"تفهم نظريات مابعد الحداثة الأزمات بطريقة عقلية نقدية ليس كنتيجة استنفاد اختياري للمقدرة العقلية الموجودة في الحداثة الغربية، لكن كنتيجة منطقية لبرنامج العقلنة المجتمعية والروحية التي تحمل هدمها في ذاتها..وهكذا يظهر اليوم من جديد صدى نظرية تؤكد بأن الدين وحده هو الذي يمكنه أن يساعد الحداثة المتكسرة بتأسيسها على أساس متعال، من أجل إخراجها من المأزق الذي توجد فيه"[٣]. كما يرى دانييل بيلDaniel Bell (١٩١٩-٢٠١١):"أن الصحوة الدينية هي الحل الوحيد، فالإيمان الديني الذي يتقيد بالإيمان بالتراث يمكن أن يمد الأفراد بهويات محددة واضحة وأمان وجودي"[٤].

٢-العقلانية المفرطة. فباعترافهم إن"سير التاريخ قد أظهر مع الوقت أن العقل حين حدد لنفسه مشروعا كهذا كان قد بالغ في تقديره لنفسه، وجد العقل نفسه جراء ذلك منهكا ومنقادا للشك بذاته"[٥]، نظرا للنتائج السيئة التي قادت إليها العقلانية المغلقة.

---

(١)نقد الحداثة، ص(٤٦).

(٢)مابعدالحداثة والتنوير، ص(٤٤).

(٣)هابرماس، جدلية العلمنة ص(٥٤-٥٥).

(٤)التناقضات الحضارية للرأسمالية، نقلا عن بيتر بروكر ، الحداثة ومابعد الحداثة ص(٢٠٥).

(٥)هابرماس،مستقبل الطبيعة الإنسانية ص(١٣٦).

٣-الفردانية. حيث بات مدار الأخلاق على المصلحة الفردية[١]، وعرفت المنفعة تعريفا ماديا بحتا يرجع إلى اللذة الخاصة بالفرد، كما أورثت الأنانية والتمحور على الذات والانغلاق عليها.

٤-الأنظمة الشمولية والكلية. فعلى سبيل المثال يرى راسل أن الفكر الهيجلي-وهيجل يعد من رواد الحداثة- قد أسهم بظهور الأنظمة الشمولية[٢].كما أسهم من قبله روسو في نظرية العقد الاجتماعي فأكمل عناصر النظام الشمولي بحظره التنظيمات الخاصة، سياسية واقتصادية، وبعدم خضوع الحاكم لسلطة فوقه[٣]. كما أن العقل الأداتي الذي أعطي الأولوية شكل تهديدا للحريات الفردية والجماعية، وأفرز أنظمة مستبدة قادت إلى الحروب العالمية.

٥-التسيب الأخلاقي، وتفكك المجتمع، حيث أكد المفهوم الغربي للحداثة أن التحديث يفرض تحطيم العلاقات الاجتماعية والمشاعر والعادات والاعتقادات المسماة بالتقليدية[٤]. إن فكرة كون المجتمع منبعا للقيم وأن الخير هو مايكون نافعا للمجتمع والشر هو مايؤذي سلامته وفعاليته، هي عنصر جوهري في المفهوم الكلاسيكي للحداثة، وصياغة فكر سياسي واجتماعي جديد على هذا الأساس يمثل ارتباط الحداثة بالعلمنة[٥]. لذا أدت القطيعة مع الدين، إلى قطيعة مع الأخلاق، لأنه لا يمكن أن يكون هناك أخلاق من غير دين. إن مفهوم الحداثة الذي بلوره فلاسفة التنوير هو مفهوم ثوري، ولكنه لايزيد على ذلك فهو لايحدد لاثقافة ولامجتمع، إنه يشعل الكفاح ضد المجتمع التقليدي أكثر من كونه يلقي الضوء على آليات عمل مجتمع جديد[٦]. إن انتصار الحداثة يعني إلغاء المبادىء الخالدة والقضاء على كل جوهر، وسوف تذهب عملية القضاء على الذات إلى مدى أبعد[٧]. يقول دانييل بيل إن:"الثقافة الحداثية لاتتفق في جملتها والأساس الأخلاقي للسلوك الهادف والعقلاني للحياة"[٨].

---

(١)انظر:انتحار الغرب ص(٢٣٩).

(٢)انظر:حكمة الغرب (١٣٣/٢).

(٣)انظر:حكمة الغرب (١١٦/٢)بتصرف.

(٤)انظر: نقد الحداثة.ص(٣٠).

(٥)انظر:نقد الحداثة.ص(٣٦-٣٧).

(٦)انظر:نقد الحداثة.ص(٤٠).

(٧)انظر:نقد الحداثة.ص(٥٤).بتصرف.

(٨)التناقضات الحضارية للرأسمالية، نقلا عن بيتر بروكر ، الحداثة ومابعد الحداثة ص(٢٠٢).

٦- أنها فلسفة هدم لابناء. فالحداثة ليست فلسفة للتقدم، بل هي قطيعة مع التراث وفكرا للعلمنة، ولتدمير العالم المقدس[١]. ذلك أن الجزم بأن التقدم هو السير نحو الوفرة والحرية والسعادة وبأن هذه الأهداف الثلاثة وثيقة الصلة ببعضها البعض ليس إلا أيديولوجيا يكذبها التاريخ باستمرار. بل وأكثر من ذلك كما يقول النقاد الراديكاليون إن مانسميه مملكة العقل أليس هو السيطرة المتنامية للنظام على الفاعلين، ولفرض السوية والتنميط؟ ثم أليس باسم العقل وكونيته أن امتدت سيطرة الرجل الغربي الذكر الراشد والمتعلم على العالم كله؟ كيف لاتكون مثل هذه الانتقادات مقنعة في نهاية قرن سادته الحركة الشيوعية التي فرضت على العالم نظما شمولية قائمة على العقل وعلى العلم وعلى التقنية؟[٢].

ويتضح الهدف الفوضوي للحداثة من تحطيم تواصل التاريخ وفصم عرى استمراريته، وتثور الحداثة على تكريس وظائف التراث، وتعيش الحداثة على التمرد على كل ماهو معياري، ويعد هذا التمرد طريقة من طرق تحديد مقاييس الفضيلة والمنفعة، ويفتنه الهلع الذي يصاحب عملية انتهاك حرمة المقدسات وضرب الثوابت[٣]."إن فكرة الحداثة في شكلها الأكثر صلابة والأشد تواضعا عندما تحددت بتدمير النظم القديمة وبانتصار العقلانية، قد فقدت قوتها في التحرر وفي الإبداع، ولا تستطيع الصمود أمام القوى المتعارضة "[٤].

(١)انظر:آلان تورين، نقد الحداثة،ص(٤٦).

(٢) انظر:آلان تورين،نقد الحداثة،ص(٢٠).

(٣)انظر:الحداثة ومابعد الحداثة ص(٢٠٢)، نقد الحداثة.ص(٥٦).

(٤)نقد الحداثة.ص(٢٢).

المسألة الخامسة:مابعد الحداثة وعلاقتها بالحداثة والتنوير.

كان تيار مابعد الحداثة نتيجة حتمية للمبالغة المفرطة في العقلانية، ومأأنتجته من أنظمة شمولية، وفي ذات الوقت الفردانية المنغلقة على الذات، حيث كرست تلك المذاهب لمجتمع أناني على مستوى الفرد، شمولي على مستوى الدولة ونظام الحكم.

حاول أنصار الحداثة الترقيع لها لكن الطوفان الجارف كان أكبر منها، وتعللوا بأن الحداثة مشروع لم ينجز. وإلى الآن ياترى هل الحداثة مشروع أنجز أم لا؟.هذا وإن تيار مابعد الحداثة العاتي كان مصادما للعقل، مبالغا في اللامعقولية والفوضوية حتى وصمت بالعدمية[١].

١-تعريف مابعد الحداثة:

تشير كلمة مابعد الحداثةpostmodernism إلى نوع من الثقافة المعاصرة، ومصطلح مابعد التحديث postmodernity يعني فترة تاريخية معينة. وفكر مابعد التحديث يتشكك في المفاهيم التقليدية للحقيقة والعقل والهوية والموضوعية، وفي فكرة اتجاه العالم نحو التقدم والتحرر، وفي القصص الشمولي، والتفسيرات النهائية[٢]. وهو يرى العالم على عكس أنماط التنوير؛ كشيء عرضي وبلا أساس ثابت، ومتنوع، وغير مستقر، وغير حتمي فهو عبارة عن مجموعة من الثقافات غير الموحدة، التي يتولد عنها درجات من التشكك في موضوعية الحقيقة والتاريخ والمفاهيم، وثبات الهويات[٣]. ويستخدم ليوتارLyotard (١٩٢٤-١٩٩٨) كلمة مابعد حداثي لوصف وضع المعرفة في الدول المتطورة، وأنها تشير إلى حالة ثقافتنا-كما يقول- بعد التحولات التي غيرت قواعد اللعبة في العلم والأدب والفن منذ نهاية القرن التاسع عشر[٤]. ويعرف ليوتار مابعد الحداثة بقوله:"التشكك إزاء الميتا-حكايات، هذا التشكك هو بلاشك

---

(١)على سبيل المثال: سمى جياني فاتيمو كتابه"نهاية الحداثة، الفلسفات العدمية والتفسيرية في ثقافة مابعد الحداثة".

(٢) هي ماتسمى بالسرديات الكبرى، وهي الأديان التي تفسر الكون ووجود الإنسان، والنظريات الكبرى أو الأيديولوجيات كالماركسية والليبرالية والقومية وغيرها.

(٣)انظر:تيري إيجلتون، أوهام مابعد الحداثة ص(٧)، وقد كان نقده لمابعد الحداثة من منظور اشتراكي، سياسي ونظري انظر ص(٩-١٠).

(٤)جيمس وليامز،ليوتار نحو فلسفة مابعد الحداثة ص(٤٧).

نتاج التقدم في العلوم، لكن هذا التقدم بدوره يفترضه سلفا"[١]. فالتشكيك محور لمابعد الحداثة، لذا يعرفها البعض بأنها:"نهاية للاعتقاد بالتقدم والتطور المباشر في التاريخ الاجتماعي، ودخول المجتمع إلى مرحلة النسبية الرافضة للحقائق المطلقة"[٢]، فهي نقد للدعاوى الكلية للعقل، ونفي للأسس الأخلاقية والفلسفية أو حتى الشرعية، مع مناهضة للمنهج باعتباره أساس العلم. فالعلم-في مابعد الحداثة- مجرد مؤسسة فوضوية، والقاعدة الوحيدة الصالحة هي أن كل شيء مقبول[٣].

فهو انتقال من فوضوية الحداثة إلى فوضوية مابعد الحداثة، القائمة على النسبية، والشك، والاختلاف والتعددية المفرطة المؤدية لفقدان الهوية، وإبطال كل الحقائق التي جاءت بها الأديان أو الفلسفات، ومن ثم خلق حقائق جديدة وليس اكتشافها، فهي ليست موجودة.

٢-تاريخ ظهور المصطلح:

يرصد أرنولد توينبيArnold Toynbee (١٨٨٩-١٩٧٥)بداية ظهور مابعد الحداثة في سبعينيات القرن التاسع عشر، بينما يذكر آخرون أن أول من استخدم كلمة "مابعد الحداثة" هو رودولف بانفيتش Rudolf Panwitz عام ١٩١٧، بغية وصف عدمية ثقافة القرن العشرين[٤].

ومابعد الحداثة تعني المرحلة اللاحقة للحداثة والتي انتهت بانتهاء الحرب العالمية الثانية، وماصحبته تلك الحروب من نتائج وآثار على الوعي الأوروبي، دفعه للقيام بعملية نقدية شاملة وجذرية لمشروع التنوير والحداثة، وظهرت في شكلها الفلسفي في سبعينيات وثمانينات القرن العشرين[٥]. حيث يرجع تحديد المصطلح إلى جان فرانسوا ليوتار في كتابه الوضع مابعد الحداثي عام ١٩٧٩[٦].

---

(١)ليوتار، الوضع مابعد الحداثي، ص(٢٤)، عن مابعد الحداثة والتنوير، ص(١٧).

(٢)عن باسم خريسان، مابعد الحداثة، ص(٢٠٣).

(٣)نقد الحداثة ص(٢٢٠)، مابعد الحداثة والتنوير،ص(١٩).

(٤)انظر: بيتر بروكر، الحداثة ومابعد الحداثة ص(١٦)، مابعد الحداثة والتنوير ص(١٢)،سياسة مابعد الحداثية،ليندا هتشيون، مقدمة المترجم د.حيدر اسماعيل ص(٨)، وفيها أقوال أخرى حول تاريخ الظهور.

(٥)انظر: مابعد الحداثة والتنوير، ص(١٤)، أوهام مابعد الحداثة ص(٤٢)، باسم خريسان،مابعد الحداثة ص(١٨٢).

(٦)انظر:القول الفلسفي للحداثة، ص(٥)، مابعد الحداثة والتنوير ص(١٦).

وقد أسس النقد النيتشوي للحداثة لتيار خاص به، تيار يسعى إلى تقويض بداهات العقلانية الغربية، وكل القيم الملازمة لها، عن طريق رفضه للقول بمنطقية الوجود، أو الإيمان بغائية الكون[١]. وعلى حد تعبير جياني فاتيمو:"يمكن التأكيد بكامل الشرعية أن مابعد الحداثة الفلسفي ولد في كتابات نيتشه" [٢]، يوضح ذلك بقوله:"ينحل مفهوم الحقيقة ذاته، أو مايعني الشيء ذاته بموت الإله، وقد قتله فرط التدين وافتعال التدين...يرى نيتشه أننا نخرج حقا من الحداثة بفضل هذه النتيجة العدمية. لئن تلاشى مفهوم الحقيقة، ولئن تلاشى كل أساس للاعتقاد بأساس...توجد اللحظة التي يمكن تحديدها بوصفها ميلاد مابعد الحداثة في الفلسفة" [٣]، ويقول ريتشارد تارناس:"وبكل المعايير فإن النبي المركزي لعقل مابعد الحداثة هو فردريك نيتشه، بنظرته الجذرية، وبوعيه النقدي السيادي، وبتوقعه المتناقض تناقضا بالغ الحدة للعدمية الناشئة في الثقافة الغربية"[٤]. ومجمل العدمية لدى نيتشهNietzsche (١٨٤٤-١٩٠٠): موت الألوهة، وسقوط القيم العليا، والأخلاق[٥]. يقول نيتشه عن كتابه (ماوراء الخير والشر):"هذا الكتاب ١٨٨٦ هو في جوهره نقد للحداثة؛ للعلوم الحديثة والفنون الحديثة، ولم تستثن منه حتى السياسة الحديثة"[٦].

ويؤكد ليوتار أن مابعد الحداثة تستلهم نقدها للحداثة والتنوير من فلسفة كانط وفيتغنشتين Wittgenstein (١٨٨٩-١٩٥١) وأدورونو، وبعض الفلاسفة الفرنسيين الذين وصفهم هابرماس بالمحافظين الجدد[٧].

---

(١)انظر:رضوان جودت، صدى الحداثة ص(٤١)، مابعد الحداثة والتنوير، ص(١٥). تشكيل العقل الحديث ص(٣١٨)، نيتشه،هذا هو الإنسان ص(١٠٣).

(٢)جياني فاتيمو، نهاية الحداثة، ص(١٨٤)، وانظر:ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربي،ص(٤٧١)، تيري إيجلتون، أوهام مابعد الحداثة ص(٢٢٧).

(٣)جياني فاتيمو، نهاية الحداثة ص(١٨٧)، وانظر: حكمة الغرب (١٥٠/٢).

(٤) ريتشارد تارناس، آلام العقل الغربي،ص(٤٧١).

(٥)انظر: نهاية الحداثة ص(٢٤)، نيتشه،هذا هو الإنسان ص(١٠٧،١٣-١٠٨، ١٥٤-١٥٥، ١٦٣-١٦٤).

(٦)نيتشه،هذا هو الإنسان ص(١٣١).

(٧)ليوتار، الوضع مابعد الحداثي ص(٨٠)، عن مابعد الحداثة والتنوير، ص(٢٠).

ومن أبرز رموز مابعدالحداثة:جان فرانسوا ليوتار، وكتابه "الوضع مابعد الحداثي"، وإيهاب حسن، الأمريكي من أصل مصري، المنظر لمابعد الحداثة منذ السبعينات[١].

هل كانت مابعد الحداثة فلسفة واسعة النطاق، أم أن انتشارها محدود؟ لايزال هذا الأمر محل نقاش[٢]. وتكاد الأدبيات الحديثة تستغرق في وصف أزمة الحداثة وفي بيان رثاثتها وتناقضاتها[٣].

٣-علاقة مابعد الحداثة بالحداثة والتنوير:

مما لاشك فيه أن فكرة ما بعد الحداثة قد ظهرت نتيجة للوعي بأزمة الأسس التي أعلنتها الحداثة ومشروع التنوير وذلك منذ بداية القرن العشرين، فمابعد الحداثة عبارة عن توجه نقدي للتنوير والحداثة وقيمهما[٤]. لذا كانت العلاقة بين مابعد الحداثة، والحداثة والتنوير علاقة قطيعة وانفصال[٥]. بل أبعد من ذلك حيث قامت مابعد الحداثة على تفكيك مشروع الحداثة والتنوير، ووضعه تحت مطرقة النقد والتقويض. حيث يؤكد أتباع هذا التيار على أن الأدوات والمعطيات الفكرية التي قدمت من قبل فلاسفة الأنوار والحداثة لم تعد صالحة لتفسير عالمنا الحديث، مما يجعلنا بأمس الحاجة لأطر معرفية جديدة للتعامل مع واقعنا الجديد[٦]. حيث ترفض مابعد الحداثة الحقيقة المطلقة التي ربطها التنوير بالعقل، لذا نزعت للاعقلانية، وللتشكيك في كل شيء، كما رفضت تقديس الذات[٧].ووجهت نقدا لمباديء التنوير كالحرية والعدالة والمساواة. أما بداية نقد الحداثة فكان من نيتشه، ثم دعم هذا التوجه النقدي مارتن هيدجر Martin Heidegger (١٨٨٩-١٩٧٦)، ثم مايسمى بالمحافظين الشباب أوالنتشويين

(١)رضوان جودت، صدى الحداثة ،ص(١٧)، باسم خريسان،مابعد الحداثة، ص(٢٣٢).

(٢)انظر:أوهام مابعد الحداثة ص(٨).

(٣)هنري لوفيفر، ماالحداثة ص(٤٥) نقلا عن صدى الحداثة ص(٣٧).

(٤)انظر: مابعد الحداثة والتنوير، ص(١٤-١٥)، باسم خريسان،مابعد الحداثة،(٢٠٣-٢١٥).

(٥)مابعد الحداثة والتنوير، ص(٢١).

(٦)انظر:سي رايت مليز، من العصر الحديث إلى العصر مابعد الحديث،عن: باسم خريسان،مابعد الحداثة،(٢١٦).

(٧)انظر: باسم خريسان،مابعد الحداثة، (٢١٠) مختصرا وبتصرف.

الجدد[1]؛ أمثال ميشيل فوكو Michel Foucault (١٩٢٦-١٩٨٤)، وجاك دريدا Jacques Derrida (١٩٣٠-٢٠٠٤)[2]. ويميز هابرماس وبيتر بروكر بين:

١-الاتجاه المناهض للحداثة لدى المحافظين الشبان، يمثل هذا الخط: جورج باتاي، ميشيل فوكو، جاك دريدا.

٢-وبين مابعد الحداثة لدى المحافظين القدامى: الذين لايسمحون أن يوصموا بعار الحداثة الثقافية، ويتابعون اضمحلال العقل المادي والتمييز بين العلم والأخلاق والفن، ويرمقون الرؤية العالمية الحديثة وعقلانيتها الإجرائية بحزن بالغ، وينصحون بالانسحاب إلى موقف سابق على الحداثة.

٣-وبين مابعد الحداثة لدى المحافظين الجدد[3].

وفي حين اتخذ التنوير موقفا عدائيا من الدين، نجد مابعد الحداثة رغم عدم إيمانهم بوجود تصميم وتخطيط مسبق من خالق، إلا أنها رفضت تلك القطيعة، ونظرت للدين كمعطى ثقافي[4]، فهم يرون إمكانية صحة جميع الأديان، دون أن يكون هناك حق وباطل، اعتمادا على مبدأ النسبية.

٤-نقد مابعد الحداثة:

مابعد الحداثة في حقيقته هو إمعان في الشك واللامعقولية، ومنع لوصم شيء بأنه حق مطلق ومن ذلك الأديان السماوية، وتذويب لكل مااتفقت عليه البشرية من الحقائق، ونسف لخبرات الإمم وعلومها، دون استناد على شيء سوى الشك في كل شيء!. وهذا الإمعان في الخروج عن الإطار، قد طاله سيل من النقد الجارف من الأوساط الغربية ذاتها، فقد انتقدت مابعد الحداثة لأفكارها حول النسبية الحضارية، والأخلاق التقليدية، ونزوعها إلى الشك،

---

(١)أطلق هابرماس هذا اللقب على فوكو ودريدا، في كتابه الحداثة مشروع لم ينجز،انظر:الحداثة ومابعد الحداثة ص(١٩٨)، مابعد الحداثة والتنوير،(٤٧) (٥٣).

(٢)انظر:مابعد الحداثة والتنوير ص(٤٧).

(٣)انظر:الحداثة ومابعد الحداثة ص(٢١٦-٢١٧)(١٩٨)، هابرماس،الحداثة مشروع لم ينجز،عن مابعد الحداثة والتنوير ص(٤٧).

(٤)انظر: باسم خريسان،مابعد الحداثة،ص(٢٢٠-٢٢١)بتصرف.

وعدائها لأفكار الوحدة والترابط. وللتنظيم المنضبط، وفقدانها لأية نظرية تغطي العمل السياسي[١]. وفلاسفة مابعد الحداثة يشددون على أن كل شيء نسبي، فالحقيقة أصبحت رأي شخصي، وبالتالي لا يمكن أن نعرف طبيعة الحقيقة[٢]، بل لايحق لأحد ادعاء امتلاك الحقيقة، فهي نسبية وليست مطلقة، والعقل يبني الحقيقة ولا يكتشفها، واللغة حيث تتحكم في بناء وتشكيل رؤيتنا للحقيقة، وحيث أن الشعوب والحضارات متنوعة الثقافات واللغات؛ مايجعل الحقيقة نسبية ولايحق لأحد ادعاءها[٣]. بل دين مابعد الحداثة هو عملية مزج لديانات مختلفة[٤]. وهذا التقرير ينسف حقيقة الدين الحق والوحي، ويلغيها تماما، كما أنه السبب في انتشار الديانات الروحية التي هي خليط من الوثنيات الشرقية في المجتمع الغربي. ولأن الحقيقة من المستحيل الوصول إليها فهي إما أن تكون لا معنى لها أو تعسفية، مادفعهم إلى رفض أي نظرية تحتكر الحقيقة في أي مجال،كما أن قولهم بأن الحقيقة نسبية يشكلها كل إنسان بنفسه، ولاتفرض عليه من الخارج، وليس هناك صحة لآراء معينة أو خطأ دائم لآراء معينة، أي ليس هناك إطلاقية في أي شيء في الحياة[٥]؛ أدى للخروج على الأديان والأعراف والتقاليد العالمية، وأصبح التوجه لقبول ماتنفيه الفطرة السوية من الشذوذ والمخدرات ونحوها. لذا فإن الوضع مابعد الحداثي كما استنتجه جيمس وليامز هو:"مجتمعات مفتتة ذات عدد كبير من القوانين الأخلاقية والاجتماعية المختلفة والمتناثرة"[٦].كما أن مابعد الحداثة بدعوتها لعدم ثبات المعنى، أصبحت عملية هائلة لتدمير المعنى، وصارت أعمال مابعد الحداثة توصف بأنها أعمال فاقدة للعمق والتحديد[٧]. وأدى هذا إلى تدمير تفسير السلف للنصوص المقدسة، وإعطاء الحق لكل أحد لتفسيرها كما يرى.

---

(١)انظر: أوهام مابعد الحداثة، ص(٢٢٩).

(٢)انتحار الغرب ص(٢١٦)، أوهام مابعد الحداثة ص(٢٢٧).

(٣)انظر: باسم خريسان،مابعد الحداثة، ص(٢١٨-٢١٩).

(٤)انظر: مابعد الحداثة،ص(٢٢١).

(٥)انظر: مابعد الحداثة،ص(٢٢٤).

(٦)جيمس وليامز، "ليوتار؛ نحو فلسفة مابعد الحداثة"ص(٥٩).

(٧)انظر: باسم خريسان،مابعد الحداثة، ص(٢٢٧).

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد؛ فقد بين هذا البحث عدة أمور عن هذه المذاهب والتيارات الفكرية التي عصفت بالغرب، منها:

١-أن هذه التيارات والمذاهب الفكرية اتفقت في بعض الجوانب، وافترقت واختصت بجوانب أخرى، حيث أجمعت هذه المذاهب على نبذ الدين، وتحرير العقل من كل قيد وسلطة، فاحتكم التنوير والعلمانية والحداثة إلى العقل وغلوا فيه، بينما قدس الليبراليون الحرية والمنفعة الفردية، القائمة على مجرد اللذة والهوى والشهوة، وانقلب تيار مابعد الحداثة على قانون العقل والمطلق وبارزه بالمحاربة.

٢- أن التنوير هو القاعدة الفلسفية والبيئة الفكرية التي ظهر منها العلمانية والليبرالية والحداثة. بل البعض يجعل التنوير مرادفا للعلمانية والحداثة.

٣- أن التنوير والحداثة كانتا سببا في ظهور مذاهب معارضة لها في تيار مابعد الحداثة؛ بما فيه من مذاهب فوضوية وعدمية.

٤-الصلة الوثيقة بين الحداثة والعلمانية، واتفاقها على أهداف التنوير وهي التقدم والعقلانية، وتهميش الدين.

٥-النتائج الفادحة في المجتمع الغربي المترتبة على الغلو في العقل، ونبذ الدين، والفردانية والنفعية، والحرية غير المنضبطة.

٦-أن هذه المذاهب عجزت عن أن تكون مصدرا مناسبا للأخلاق، مما يحيل لزاما للعودة إلى الدين والإيمان، المتمثل في الدين الإسلامي خاتم الأديان السماوية وناسخها.

٧- أن العقل الذي احتكم إليه الغرب، خرج على نفسه وانتكس، واضطرب أيما اضطراب عندما اعتقد أنه هو القائد والسلطان القاهر، ولم يوصل تلك المجتمعات إلى السعادة الحقة التي تنشدها، والتي لا تكون إلا في ظل عبادة رب العباد.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

- آلام العقل الغربي، ريتشارد تارناس، ت: فاضل جتكر، مكتبة العبيكان، الرياض، كلمة، أبوظبي، ط الأولى،١٤٣١هـ.
- أزمة الضمير الأوروبي، بول هازار، ت:جودت عثمان، محمد المستكاوي، مطبعة الكاتب المصري، القاهرة، ط الأولى،١٩٤٨.
- اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها، إدوارد جيبون، ت: محمد علي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط:الثانية،١٩٩٧.
- انتحار الغرب، ريتشارد كوك، وكريس سميث، ت: محمد محمود التوبة، مكتبة العبيكان، الرياض، كلمة، أبوظبي، ط الأولى،١٤٣٠هـ.
- أوهام مابعد الحداثة، تيري إيجلتون، ت: منى سلام، أكاديمية الفنون.
- تشكيل العقل الحديث، كرين برينتون، ت: شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت،١٩٨٤.
- التنوير، دوريندا أوترام، ترجمة د.ماجد موريس إبراهيم،دار الفارابي،ط الأولى ١٤٢٩هـ.
- ثلاثة نصوص: تأملات في التربية، ماهي الأنوار، ماالتوجه في التفكير، إمانويل كانط. ت:محمود بن جماعة، دار محمد علي للنشر،تونس،ط:١، ٢٠٠٥.
- جدل التنوير، ماكس هوركهايمر و ثيودور أدورنو، ت: د. جورج كتوره، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت،ط الأولى،٢٠٠٦.
- جدلية العلمنة، العقل والدين، يورجن هابرماس، ت: حميد لشهب، جداول، بيروت، ط الأولى، ٢٠١٣.
- الحداثة ومابعد الحداثة، بيتر بروكر، ت: عبد الوهاب علوب، منشورات المجمع الثقافي، أبوظبي،ط الأولى ١٩٩٥.
- حرية الفكر، ج .بيورى، ت: محمد إسحاق، المركز القومي للترجمة، القاهرة،ط الأولى، ٢٠١٠.
- حكمة الغرب، برتراند راسل، ترجمة: فؤاد زكريا،عالم المعرفة،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٣.

- الدين في الديمقراطية، مسار العلمنة، مارسيل غوشيه، ترجمة شفيق محسن، المنظمة العربية للترجمة،مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط الأولى ،٢٠٠٧.
- روح الشرائع، مونتسكيو، ترجمة عادل زعيتر،اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت،دار المعارف، القاهرة ،١٩٥٣.
- سياسة مابعد الحداثية، ليندا هتشيون، ترجمة حيدر حاج، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط الأولى، ٢٠٠٩.
- صدى الحداثة، رضوان جودت، المركز الثقافي العربي، بيروت،ط الأولى،٢٠٠٣.
- الطرق إلى الحداثة، غيرترود هيملفارب، ت: د.محمود سيد،عالم المعرفة، الكويت، ١٤٣٠.
- عن الحرية، جون ستيوارت مل، ت: هيثم كامل الزبيدي.
- النفعية، جون ستيوارت مل، ت:حيدر حاج، المنظمة العربية للترجمة، بيروت،مركز دراسات الوحدة العربية،بيروت،ط:الأولى،٢٠١٢.
- العلمانية، محمد مهدي شمس الدين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، مكتبة الألفين، الكويت.ط الثانية،١٤٠٣.
- العلمانية، سفر الحوالي، الدار السلفية،الكويت، ١٤٠٨هـ.
- العلمانية، غي هارشير، ت: رشا الصباغ، المؤسسة العربية للتحديث الفكري، دمشق، ط الأولى، ٢٠٠٥.
- العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، ط الأولى، ٢٠٠٢.
- فكر حركة الاستنارة، وتناقضاته، عبد الوهاب المسيري، دار نهضة مصر، ط الأولى، ١٩٩٨.
- القول الفلسفي للحداثة، يورجن هابرماس، ت: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق،١٩٦٥.
- الكلمات والأشياء، ميشيل فوكو، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٠.
- الليبراليون الجدد، ديفيد هارفي، ت: مجاب الإمام، مكتبة العبيكان، ط الأولى، ١٤٢٩.

- الليبرالية وحدود العدالة، مايكل ساندل، ت: محمد هناد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط الأولى،٢٠٠٩.
- ليوتار، نحو فلسفة مابعد الحداثة. جيمس وليامز، ت: إيمان عبد العزيز، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٣.
- مابعد الحداثة، د.باسم خريسان، دار الفكر،مكتبة الأسد، دمشق،ط الأولى،١٤٢٥هـ.
- مابعد الحداثة والتنوير، الزاواوي بغورة، دار الطليعة،بيروت، ط الأولى،٢٠٠٩.
- ماهي الأنوار، ميشيل فوكو، ت: حميد طاس.
- مدخل إلى التنوير الأوروبي، هاشم صالح، دار الطليعة، بيروت، ط الأولى،٢٠٠٥.
- مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، يورجن هابرماس، ت: جورج كتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، ط الأولى،٢٠٠٦.
- المعجم الفلسفي، د.جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.
- مقدمة قصيرة عن الرأسمالية، جيمس فولتشر، ت: رفعت السيد ،دار الشروق،القاهرة ط الأولى،٢٠١١.
- موسوعة لالاند الفلسفية، أندريه لالاند، ت: خليل أحمد خليل،منشورات عويدات،بيروت، ط الثانية،٢٠٠١.
- النظرية العامة للتشغيل والفائدة، جون كينز، ت: إلهام عيدروس، دار العين ، القاهرة.
- نقد الليبرالية، الطيب بوعزة، مجلة البيان الرياض، ط الأولى، ١٤٣٠.
- نهاية الحداثة، الفلسفات العدمية والتفسيرية، جياني فاتيمو، ت: فاطمة الجيوشي، وزارة الثقافة السورية، دمشق،١٩٩٨.
- نهاية التايخ وخاتم البشر، فرنسيس فوكو ياما، ت: حسين أحمد أمين، مركز الأهرام، القاهرة، ط الأولى، ١٤١٣.
- نقد الحداثة، آلان تورين، ت: أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٧.
- هذا هو الإنسان، فردريك نيتشه، ت:علي مصباح، منشورات الجمل، ط الأولى،٢٠٠٣.